الذوق العربي للفصحى واحداثه لبعض الظواهر السياقية

دكتور / سيد أحمد على الصاوى
مدرس بقسم أصول اللغة
بكلية اللغة العربية بأسيوط

تمهيد :

غيمه النطق وأهميته عند قدامى العرب :

مما لا شك فيه أن الأصل فى اللغة هو النطق وأن الكتابة تسجيل لما ينطقه الانسان بغية التوصل الى غائب(١) .

ومن هنا قسم العلماء اللغة التى يستعملها الانسان الى لغة منطوقة وأخرى مكتوبة ، وكان الاهتمام باللغة المنطوقة أكثر من غيرها مما يزيد من أهمية الدرس اللغوى الحديث .

فقد تكلم الانسان قبل أن يكتب واكتسب اللغة نطقا من مجاوريه قبل أن يمارسها كتابة .

وقد توجد جماعات تتكلم لغاتها ولا تكتبها ، كما يوجد أفراد أميون يتكلمون اللغة ولا يكتبونها(٢) .

وذلك كان للكلام أهميته فى عملية التخاطب بين الأفراد أكثر مما للكتابة .

---

(١) الملامح الادائية د. عبدالله ربيع ص ١١ .
(٢) الدلالة الصوتية ـ دراسة لغوية لدلالة الصوت ـ د/ كريم زكى ص ٧٦ .

« ومن أجل هذا كان الانسان حريصا على أن يضمن نطقه كل ما يستطيع من الاشارات الصوتية ، التى تعبر عن غرضه ، وتكشف عن نفسيته ، وتنقل عواطفه وانفعالاته الى غيره من المستمعين »(٣) .

« ذلك أن الكلام لا يعتمد فقط على ماذا نقول ؟ ، ولكنه يعتمد أيضا على كيف نقول ؟ »(٤) .

ومما يساهم فى عملية الكلام حال التخاطب ما يعرف بالاشارات الجسمية ونغمات الصوت والمسافة بين المتكلم والسامع ، ومن هنا كان ارتباط المنطق بالسياق اللغوى الذى يتدخل فى تحديد معانى الألفاظ .

وقد أثبتت الدراسات النفسيه أن نغمات الصوت تتغير بتغير مشاعر المتكلم وأحاسيسه من فرح وحزن وألم ... معتمدة على أنماط الصوت حال الالقاء والأداء .

وما توصلت اليه هذه الدراسة الحديثة عرفه القدماء من قبل فها هو ذا الفخر الرازى ت ٦٠٦ هـ فى كتابه الفراسة يشير الى ذلك تحت عنوان : « دلائل الصوت والكلام » فيقول :

« من كان صوته غليظا جهيرا فهو شجاع مكار ، ومن كان كلامه سريعا فهو عجول قليل الفهم ، ومن كان كلامه عاليا سريعا فهو غضوب سيء الخلق ، ومن كان كلامه مخفضا فبالضد ، ومن كان صوته ثقيلا فهو رغيب البطن ، ومن كان فى صوته غنة فانه حسود مضمر الشر »(٥)

وقد أعطت هذه المفاهيم قديما وحديثا ما يفيد فى تحديد سمات الشخص المتكلم وملامحه .

---

(٣) الملامح الأدائية ص ١١ .

(٤) الدلالة الصوتية ص ٧٧ .

(٥) كتاب الفراسة للفخر الرازى ص ١٦١ .

بمعنى أن الصوت قد يساهم فى تحديد جنس المتكلم ، كما يفيد فى تحديد عمره ، وطبقته الاجتماعية .

وقد فطن علماء المسلمين كغيرهم لأهمية النطق ، ودوره الفعال فى الالقاء والأداء .

فابن قيم الجوزية ت ٧٥١ هـ فى حديثه عن السماع يقول : « التذاذ الأذن بالصوت الطيب كالتذاذ العين بالمنظر الحسن »(٦) .

والزمخشرى فى تفسير قوله تعالى: « يزيد فى الخلق ما يشاء »(٧) يقول : « روى عن رسول الله ـ ﷺ .... هو الوجه الحسن والصوت الحسن »(٨) .

وقد تواتر عن رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابه حب سماع القرآن من ذى الصوت الحسن ، وصدر عنه ـ ﷺ ـ « زينوا القرآن بأصواتكم » . قال ابن الأثير ت ٦٠٦ هـ الزينة هنا لصوت القارىء لا القرآن ويؤيد ، حديث « لكل شىء حلية وحلية القرآن حسن الصوت »(٩) .

وقد احتفظت لنا بعض كتب الحديث بأسماء بعض الصحابة ممن كانوا يتمتعون بحسن الصوت كسالم مولى أبى حذيفة(١٠) . رضوان الله عن الجميع .

وحى يتم للنطق تحديد شخصية المتكلم لابد من الاشارة الى ما عرف حديثا بظاهرة « التزمين » .

---

(٦) مدارج السالكين ١/٥٢١ .

(٧) من الآية ١ فاطر .

(٨) الكشاف ٢/٥٦٩ .

(٩) النهاية فى غريب الحديث والأثر ٢/٣٢٥ .

(١٠) انظر صحيح البخارى ٦/٢٣٤ .

وهى عند المحدثين : مدى السرعة التى يتحدث بها المتكلم(١١) ٠

وقد أشار القدماء الى هذا عندما وصفوا اللسان بالطلاقة كما وصفوه بالعى(١٢) ٠ فالطلاقة خلو الصوت من الحبسة ، والتوقف والسرعة ، والعى فقدان القدرة على سلاسة التعبير(١٣) ٠

وقد قال سيبويه فيما يشبه هذا : « أما الذين يشبعون فيمططون ، وعلامتها واو وياء ، وهذا تحكمه لك المشافهة ، وذلك قولك : يضربها ومن مأمنك ٠ وأما الذين لا يشبعون فيختلسون اختلاسا وذلك قولك : يضربها ، ومن مأمنك ، يسرعون اللفظ ، ومن ثم قال أبو عمرو : « الى بارئكم »(١٤) ويدلك على أنها متحركة قولهم من مأمنك ، فيبينون النون ولو كانت ساكنة لم تحقق النون »(١٥) ٠

وقد استعمل سيبويه الاشباع والتمطيط بمعنى الأداء البطىء فى مقابل السرعة فى قوله يسرعون اللفظ ٠

وهو بذلك يفرق بين نوعين من التزمين : بطىء وهو ما عبر عنه بالتمطيط ، وسريع وهو ما عبر عنه بقوله : يسرعون اللفظ(١٦) ٠

---

(١١) انظر أصوات اللغة العربية د٠ عبد الطيب ص ١٢ ٠ والملامح الأدائية ص ١٥٢ ٠

(١٢) هى فى القاموس : عيا بالكسر ٠ انظر القاموس المحيط ٣٦١/٣ عى ٠

(١٣) الدلالة الصوتية ص ٩٢ ٠

(١٤) من الآية ٥٤ البقرة ، وقال ابن الجزرى ت ٨٣٣هـ : روى أكثر أهل الأداء الاختلاس من رواية الدورى والاسكان من رواية السوس ٠ انظر النشر ٢١٢/٢ ٠

(١٥) الكتاب ٢٠٢/٤ ٠

(١٦) انظر من التزمين فى نطق الفصحى د٠ عبدالعزيز علام ص٢١٨ نقلا عن الملامح الأدائية ص١٥٧ ٠

كما أثنى الجاحظ ت ٢٥٥ هـ على الهدوء والتمهل ووضعه ضمن الصفات المرضية فى النطق وكان يعنى الوسطية من هذه الناحية ، فقد وصف كلام رسول الله ـ ﷺ ـ بأنه لا يبطىء ولا يعجل ولا يسهب ولا يحصر »(١٧) .

وبمثل هذا تحدث البلاغيون . قال ابن سنان الخفاجى ت ٤٦٦هـ: البلاغة أن تصيب فلا تخطىء ، وتسرع فلا تبطىء(١٨) .

وان كان حديث اللغويين والبلاغيين عن التزمين قليلا فما ذلك الا أن مثل هذا يؤخذ بالمشافهة ويحكمه الذوق .

وقد استطاع علماء التجويد أن يجددوا بصورة عامة بعض أنماط من التزمين على نحو ما ذكر القسطلانى ت ٩٢٣هـ فى مراتب التزمين قائلا : قسم أهل الأداء القراءة على أربعة أقسام : التحقيق ، والحدر ، والتدوير ، والترتيل »(١٩) .

وقد عرف كلا من هذه المصطلحات .

وهكذا كانت العناية بنطق الصوت عند القدماء من حيث الايقاع والالقاء فى عملية التخاطب بين الأفراد ، والتواصل بين الجماعات .

ومن منطق هذه العناية للصوت عند ناطقيه من العرب كانت ثقافة الأوائل منهم رياضة الكلام ، وتحقيق بعض السمات فى عملية الأداء فالجهارة التى تعنى علو الصوت للحاجة ، والفصاحة . التى تعنى وضوح الصوت ، ودرجة الايقاع التى تعنى تناسق الصوت حال الأداء

---

(١٧) راجع الملامح الأدائية ١٥٤ ١٥٥ .

(١٨) سر الفصاحة ص ٥٠ .

(١٩) لطائف الاشارات لفنون القراءات ٢١٨/١ .

وقد ساعدهم على ذلك طبيعة الصحراء المترامية الأطراف التى شحذت أذهانهم وأرهفت حسهم .

بالاضافة الى أن أميتهم فرضت عليهم الاعتماد على السماع فى نقل المعرفة ومن هنا كان الاهتمام فى اللغة باللسان والأذن ، ولا غرو فى ذلك فقد كان مما يعبر عن أحاسيسهم فنا كلاميا هو « الشعر » ، وكانت أعظم معجزة لرسول الله — ﷺ — هنا معجزة كلامية هى « القرآن الكريم » .

ولما كانت الجهارة من سمات النطق عمل الاسلام على تهذيبها فى السلوك الكلامى ، ونهى عن رفع الصوت لغير حاجة مثل قوله تعالى :

« لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض »(٢٠) .

وأيضا لما كانت الفصاحة من سمات الأداء تحدث عنها علماء العرب بما يوضح معناها ، فهى الظهور والبيان ، وأفصح اللبن انجلت رغوته ، وقد قال ﷺ : أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش »(٢١) .

وقال الجاحظ . « كلما كان اللسان أبين كان أحمد »(٢٢) .

وقال ثابت بن أبى ثابت (القرن الثالث) واصفا اللسان : « ومن الألسنة الفصيح وهو البين اللسان »(٢٣) .

وبمثل هذا كان الاهتمام بدرجة الايقاع فى الأداء ، وابن جنى ت ٣٩٣ هـ يضع يدنا على معرفة القدامى للايقاع فى أداء الألفاظ ، وأن

---

(٢٠) من الآية ٢ الحجرات .
(٢١) سر الفصاحة ٤٩ .
(٢٢) البيان والتبيين ١/١١ .
(٢٣) خلق الانسان ص ١٨٦ .

ذلك مما اعتنت به العرب فيقول : فأول ذلك عنايتها بألفاظها • فانهـا لمـا كانت عنوان معانيها ••• أصلحوها ، ورتبوها ، وبالغوا فى تحسينها ليكون ذلك أوقع فى السمع ••• ألا ترى أن المثـل اذا كان مسجوعا لذ لسامعه فحفظه ••• وأو لم يكن مسجوعا لم تأنس النفس به »(٢٤)

وهذا يعنى أن السجع كان وسـيلة من وسـائل اعتناء العـرب بالألفاظ حتى يتم لهـا الايقاع ، وكانوا يصلون الى ذلك بطرق منهـا ما عرف فى كلامهم بالاتباع والمزاوجة • ففى قوله — ﷺ —: « ارجعن مأزورات غير مأجورات » • يقول ابن الأثير : أى آثمات ، وقياسـه موزورات ••• وانمـا قـال : مأزورات قصـدا للتـوازن وصـحة السـجع »(٢٥) •

وقد ذكر ابن قتيبـة فى أدب الكـاتب طائفـة من أمثـلة هـذه الظاهـرة(٢٦) •

ومن أجـل هـذا كان حرص القدماء على اتباع بعض الكلمـات ليحصل الايقاع فى الأداء والنطق •

يقـول النويرى ت ٧٣٣ هـ : « قـد تراهم يخرجون الكلمـة عن أوضاعها من أجـل التوافق النعمى فى الازدواج ، فيقولون : آتيتـك بالغدايا والعشايا »(٢٧) •

وهكذا يتبين لنا بجلاء ووضوح مدى قيمـة النطق والأداء عنـد العرب ، وكيف كان اهتمامهم به فى عملية التخاطب والتواصل •

---

(٢٤) الخصائص ١/٢١٥ ، ٢١٦ •
(٢٥) النهاية فى غريب الحديث ٥/١٧٩ •
(٢٦) انظره ص ٣٧ ، ٣٨ •
(٢٧) نهاية الأرب ٧/١٠٣ •

وبعد فالذى سبق يؤدى بنا الى تساؤل مؤداه : هل كان للعرب ذوق لغوى تم لهم عن طريقه تهذيب النطق لاقتناعهم بأهميته وقيمته ؟

وهل كان للغتهم نظام يقتضى مسايرة الأداء الكلامى له ؟ وما موقف الذوق اللغوى لو أخل النطق والأداء بهذا النظام هذا هو لب البحث الذى نحن بصدده • وتلك نقاط قصدنا بالبحث الوقوف معها حتى نصل فى النهاية الى ابراز خاصة من خواص لغتنا الفصحى لغة القرآن الكريم •

واذا كانت هناك كثير من الشواهد — التى سيأتى ذكرها — تؤكد بما لا يزيد مجالا للشك أن العرب كان لديهم ذوق لغوى تم لهم عن طريقه تهذيب نطقهم ولغتهم بما يتناسب وذوقهم • اذا كان الأمر كذلك • فما مظاهر هذا التذوق وآثاره فى الفصحى •

تذوق العرب للفصحى — مظاهره ، وآثاره

وبداية نعرف بالذوق عند اللغويين والأدباء والبلاغيين حتى يتثنى لنا معرفة تذوق العرب للغتهم فى شتى مظاهرها ، وجميع جوانبها وأنهم كانوا جديرين بذلك •

فى معاجم اللغة جاء الكلمة معنيان : حسى ، ومعنوى •

فالحسى قولهم : الذوق : ادراك طعم الشىء بواسطة الرطوبة المنبثة بالعصب المفروش على عضل اللسان • يقال : ذقت الطعام أذوقه ذوقا ، وذوقانا ، وذواقا ، ومذاقا • اذا عرفته بتلك الواسطة(٢٨) •

---

(٢٨) المصباح المنير ٢١١ ذوق •

(٢٨) المصباح المنير ذوق • والبارع فى اللغة ٤٩٦ ذوق •

والمعنوى تولهم . داق الرجل وما عنده امتحنه ، والشيء جربه والعذاب ، والمكروه نزلا به(٢٩) .

وهذا يعنى أن الذوق قد يكون حاسة حسية ، ومعنوية ، وأن المعنوية تستعمل فى اختبار المعنويات كما تستعمل الحسية فى امتحان الحسيات وقد ذكرت معاجم اللغة أيضا أن الحاسة المعنوية تستعمل فى ذوق الفنون والعلوم .

ففى أساس البلاغة : « هو حسن الذوق للشعر اذا كان مطبوعا عليه(٣٠) .

وفى المعجم الوسيط : « الذوق فى الأدب والفن : حاسة معنوية يصدر عنها انبساط النفس ، أو انقباضها لدى النظر فى أثر من آثار العاطفة أو الفكر ، ويقال : هو حسن الذوق للشعر فهامة له خبير بنقده »(٣١) .

والذق عند الأدباء . هو المرجع النهائى فى كل نقد ... والذوق الذى يعتد به هو ذوق ذوى البصر بالشعر ... وهو وسيلة مشروعة من وسائل المعرفة(٣٢) .

والأدباء يعتبرون النقد الأدبى نتاج ذوق خاص ينجم عن احساس مرهف بالجمال أو القبح فى الصورة الأدبية . وهم يعتقدون أن الأذواق فى مجال الفنون تختلف اختلافا ملحوظا ، فهذا ذواقة مرهف

---

(٢٩) انظر أفعال ابن القطاع ٣٩٦/١ .
(٣٠) أساس البلاغة ١٤٧ ذوق .
(٣١) المعجم الوسيط ٣٣٩/١ ذوق .
(٣٢) راجع النقد المنهجى عند العرب ١٠٢ .

الذوق ، وذاك يعالج الذوق معالجة كأنما يمتح(*) من بئر لا قرار لها ، وثالث قد أراح واستراح اذا لم يصب شيئا من نعمة الذوق(٣٣) .

وهكذا يتبين مفهوم الذوق ووظيفته عند أهل الأدب والنقد .

أما مفهومه عند البلاغيين .

فقد تحدث ابن خلدون ت ٨٠٨ هـ عن تفسير الذوق فى مصطلح أهل البيان وتحقيق معناه فقال :

« اعلم أن لفظه الذوق يتداولها المعتنون بفنون البيان ، ومعناها حصول ملكة البلاغة للسان ، وقد مر تفسير البلاغة ، وأنها مطابقة الكلام للمعنى من جميع وجوهه بخواص تقع للتراكيب فى افادة ذلك(٣٤) .

ثم يوضح ابن خلدون كيفية حصول هذه الملكة للسان واستقرارها فيه : بأن المتكلم بلسان العرب والبليغ فيه يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب وأنحاء مخاطباتهم ، وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده فاذا اتصلت مقاماته بمخالطة كلام العرب حصلت له الملكة فى نظم الكلام على ذلك الوجه ... وان سمع تركيبا عن جار على ذلك مجه ونباعنه سمعه ، والملكات اذا استقرت ظهرت كأنها طبيعية ، وتحصل الملكة بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتقطن لخواص تراكيبه . وقد استعير لهذه الملكة عندما ترسخ وتستقر اسم الذوق الذى اصطلح عليه أهل صناعة البيان ، وانما هو موضوع لادراك

(*) متح الماء يمتحه متحه اذا نزعه ... والمتح المستقى من أعلى البئر . انظر اللسان ٥/٤١٢٦ متح .

(٣٣) مذاهب النقد وقضاياه د. عبدالرحمن عثمان ص ١٢ ، ١٣ .

(٣٤) مقدمة ابن خلدون ص ٥١٥ .

الطعوم لكن لما كان محله هذه الملكة فى اللسان من حيث النطق بالكلام كما هو محل لإدراك الطعوم استعير لها اسمه ، أيضا فهو وجدانى للسان كما أن الطعوم محسوسة له(٣٥) .

ونستخلص مما سبق أن ماكة الذوق لدى العرب بالنسبة للغتهم فطرية طبيعية بها يتخيرون من الكلام ما يتفق وهذه الماكة . أما بالنسبة لغيرهم فهى مكتسبة تحصل لمن مارس كلامهم واختلط بتراكيبهم ونهج أساليبهم .

والذى نقصده من تذوق العرب للغتهم ومظاهر هذا التذوق انما ذلك الذى كان فى مرحله ما قبل استخدام الألسنة بخطر اللحن الناتج عن احتكاك العرب بغيرهم . وهذا يعنى أن الأعاجم الداخلين فى اللسان العربى لا يحصل لهم هذا الذوق لقصور حظهم فى هذه الملكة التى تبين أمرها . ويستثنى أمثال سيبويه فهؤلاء كانوا عجما فى نسبهم فقط أما النشأة فكانت بين أهل هذه الملكة من العرب(٣٦) .

ويترتب على هذا أن أهل البدو أجود ذوقا من أهل الأمصار لاختلاطهم بغيرهم .

ومن خلال هذه المفاهيم جميعها نستوضح مفهوم الذوق ، ومدى توفره لدى العرب ، ومما يدلنا على ذلك حديث القدماء من اللغويين فيما يعد من مظاهر تذوق العرب للغتهم ومن ذلك :

١ ــ حب اللغة وعشقها :

ومما يلفت النظر فى هذا من أقوال القدماء ما جاء فى الخصائص « والمروى عنهم فى شغفهم بلغتهم وتعظيمهم لها ، واعتقادهم أجمل

---

(٣٥) المرجع السابق ٥١٦ .

(٣٦) المرجع السابق ص ٥١٧ .

الجميل فيها أكثر من أن يورد ، أو جزء من أجزاء كثيرة منه ، فان قلت : فان العجم أيضا بلغتهم مشغوفون ، ولها مؤثرون ، ولأن يدعهـا شيء من العربى كارهون ... قيل لو أحست العرب بلطف صناعة العـربية في هذه اللغة ، وما فيها من الغموض والرقة لاعتذرت من اعترافها بلغتها فضلا عن التقديم لها والتنويه منها »(٣٧) .

وهكذا يضع القدماء يدنا على ما كان للعرب من حب عميق وعشق دفين تجاه لغتهم بدا واضحا فى الاحساس بها ولطف صناعتها ، وكـل هذا ان دل فانما يدل على كيفية تذوقهم لهذه اللغة من خلال هذا الحب وذلك العشق . ومما يؤكد لنا هذا ما يأتى :

٢ ــ اعتناء العرب بلغتهم ألفاظا ومعانى :

ففى بـاب « الرد على من ادعى على العرب عنايتهـا بالألفاظ ، واغفالها المعانى »

يقول ابن جنى :

« ان العرب كما تعنى بألفاظها فتصلحها ، وتهذبها ، وتراعيها ، وتلاحظ أحكامها بالشعر تارة ، وبالخطب أخرى ، وبالاسـجاع التى تلتزمها وتتكلف استمرارها ، فان المعانى أقـوى عندها وأكرم عليهـا وأفخم قدرا فى نفوسها »(٣٨) ونأخذ من هذا أن من مظـاهر اعتنـاء العرب باللفظ . الوزن فى الشـعر ، والسـجع فى النثر ، ويذكر بعض المحدثين أن نلذذ الدوق باللغة من هذه الناحيـة كان منذ عهـد سحيق فيقـول :

---

(٣٧) الخصائص ١/٢٤٢ .

(٣٨) المرجع السابق ١/٢١٥ .

« إن هذا التلذذ الذوقي باللغة من حيث جرس الألفاظ ورنينها ووزن لحنها الموسيقي ، كان دأبا وديدنا للعرب منذ عهد سحيق ، فقيما قبل الاسلام كان الخطيب الى جانب الشاعر مقام عظيم ، اذا كان صاحب الكلمة العليا في القبيلة ، ولم يكن من النادر أن يستخدم النثر المسجوع »(٣٩) .

واذا لمسنا هذا فيهم فاننا نلمس شيئا اخر ، وهو أن خدمة اللفظ ما كانت الا لخدمة المعنى . فاذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها ، وحسنوها ، وحبروا حواشيها ، وهذبوها ، وصقلوا غروبها ، وأرهفوها ، فلا ترين أن العناية اذ ذاك بالألفاظ ! بل خدمة منهم للمعاني .

واذا اعترض معترض بقول الشاعر :

ولما قضينا من منى كل حاجه ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطح

بأن فيه طيّ لغا وملامح أنجاء ، وليس المعنى كذلك .

أجاب ابن جني : بأن فيه ما يفيد أهل التنسيب والرقة ما لا يفيد غيرهم وذلك أنه قد شاع عنهم ، واتسع في محاوراتهم على قدر الحديث بين الأليفين وفي قوله : « أطراف الأحاديث » وجي خفي لما يتعاطاه المحبون من التعريض والتلويح والايماء دون التصريح ، وذلك أحلى وأحدث من أن يكون مشافهة وجهرا واذا كان كذلك فمعنى البيتين أعلى عندهم من لفظهما(٤٠) .

وهكذا تتوالى المترادفات في نصوص القدماء لشعرنا من طرف

---

(٤٠) الخصائص ١/٢١٧ : ٢٢٠ بتصرف ، وانظر البيتين في اللسان ٤/٢٦٦٠ طرف من غير نسبة .

خفى بما كان العرب من حب للغة وعشق لها واعتناء بمعانيها قبل ألفاظها وما ذلك الا نتاج ملكة جيدة وذوق حساس مرهف .

ومما يزيد الأمر وضوحا :

٣ ــ عناية العرب بايصال المعنى كما هو فى النفس :

لون آخر من ألوان تذوق العرب للغتهم ، وهو أن العرب كانوا يستخدمون الألفاظ والعبارات فى توصيل المعنى للمخاطب وكأنه يشاهد الحكاية أول حدوثها مما ينبىء عن طريق من طرق تذوق العرب للغتهم اذ أنهم أحسوا وتذوقوا أن بغير استعمال ألفاظ معينة وعبارات محددة فى نقل حكاية من الحكايات لا يصل المعنى كما يراد .

وفى ذلك يقول ابن جنى :

« كانت الجماعة من علمائنا تشاهد أحوال العرب ووجوهها .... من استخفافها شيئا ، أو استثقاله ، وتقبله ، أو انكاره والأنس بـــه ، أو الاستيحاش منـــه ، والرضابه أو التعجب من قائله وغير ذلك ... ألا ترى الى قوله :

تقول وصكت وجهها بيمينها أبعلى هذا بالرحى المتقاعس

فلو قال حاكيا عنها : أبعلى هـــذا بالرحى المتقاعس . من غير أن يذكر صـــك الوجه لأعلمنا بذلك أنها كانت متعجبة منكرة . لكنـــه لمـــا حكى الحـــال فقال : وصكت وجهها . علم بذلك قوة انكارها ، وتعاظم الصورة لها هذا مع أنك سامع لحكاية الحال غير مشاهد لها ولو شاهدتها لكنت بها أعرف »(٤١) .

---

(٤١) الخصائص ١/٢٤٥ .

وهذا بيان ذوق العرب مداه وأعلى منزلته ، فلم يقصره العربي على نفسه بل تعدى به الى ذهن المخاطب ليختبر درجات فهمه للحكاية المنقولة اليه .

هذا وقد شمل تذوق العرب للغة جميع مكوناتها حركات وحروف وكلمات .

ـ تذوق الحركة ـ

يستنبط علماء اللغة من بعض القراءات القرآنية ما يدل على احساس العرب بالحركة وتذوقهم اياها فيما يعرف بالاختلاس والاشمام والاسكان .

١ ـ الاختلاس :

فسيبويه يشير الى ذلك وأن العرب لا ينطقون بالاختلاس في الفتح لخفته وان كان ذلك تضمينا لا تصريحا فيقول :

« وأما الذين لا يشبعون . فيختلسون اختلاسا . ومن ثم قال أبو عمرو :

« الى بارئكم »(٤٢) ... ولا يكون هذا في النصب لأن الفتح أخف عليهم »(٤٣) .

وهذا يعني أن العرب كانوا يتذوقون الحركات من حيث الخفة والثقل ، فيختلسون ما ثقل ولا يختلسون ما خف .

ويوضح هذا ابن جني بقوله :

« ضايقوا أنفسهم ، وخففوا عن السنتهم بأن اختلسوا الحركات

---

(٤٢) من الآية ٥٤ البقرة .

(٤٣) الكتاب ٤/٢٠٢ .

اختلاسا ، وأدغموها فلم يمكنوها في أماكن كثيرة ولم يتتبعوها . الا ترى الى قراءة أبي عمرو « مالك لا تأمنا على يوسف »(٤٤) مختلسا لا محققا ... وكذلك قوله عز وجل : « فتوبوا الى بارئكم » مختلسا غير ممكن كسر الهمزة »(٤٥) .

فهذه شواهد نقل فيها اللغويون الاختلاس عن القراء ، وان كان قد ورد عن القراء الاسكان فيها أيضا .

فقد ذكر صاحب النشر أن بعضهم روى الاسكان عن الدوري في « بارئكم »(٤٦) .

٢ ـ الاشمام :

واذا كان الاختلاس دليلا على تذوق العرب للحركة ، فان الاشمام ابلغ في التذوق .

ذلك أن الاختلاس هو ما اصطلح عليه في علم القراءات «بالروم» وهو عند القراء عبارة عن النطق ببعض الحركة ، وقال بعضهم هو تضعيف الصوت بالحركة حتى يذهب معظمها ، وهو عند النحاة عبارة عن النطق بالحركة بصوت خفي(٤٧) وقال الجوهري : روم الحركة الذي ذكره سيبويه حركة مختلسة مخفاة لضرب من التخفيف ، وهي أكثر من الاشمام لأنها تسمع وهي بزنة الحركة وان كانت مختلسة مثل همزة بين بين »(٤٨) .

---

(٤٤) من الآية ١١ يوسف .
(٤٥) الخصائص ١/٧٢ .
(٤٦) النشر ٢/٢١٢ .
(٤٧) المرجع السابق ٢/٢١ .
(٤٨) اللسان ٣/١٧٨٢ روم .

وأما الاسمام فهو عبارة عن الاشارة الى الحركة من غير تصويت ، وقال بعضهم : أن تجعل شفتيك على صورتها اذا لفظت بالضمة ، وكلاهما واحد ، ولا تكون الاشارة الا بعد سكون الحرف »(٤٩) .

ويفسر بعض المحدثين ذلك بقوله :

« الاسمام أن تضم شفتيك بعد الاسكان للاشارة الى الضم وتدع بينهما بعض انفراج يخرج منه النفس ، ولابد من اتصال ضم الشفتين بالاسكان »(٥٠) .

فاذا كان هناك اقتناع من العرب أن يشيروا الى الحركة بالعضو الذى من عادته أن يستعمل فى النطق به كان ذلك أدل دليل على عنايتهم بالحركة وتذوقهم اياها .

وهكذا ينصرف العرب فى الحركة حال النطق بفناء على تذوقهم فتارة يخرجونها مختلسة غير مشبعة ، وأخرى مشمة للعين لا للاذن ، واذا كان فى هذا ابقاء للحركة أثر من آثارها ، فان فى ازالتها واحلال السكون محلها طلبا للخفة لمظهر واضح من مظاهر تذوق العرب للغتهم ، ودليل على تحسسهم الثقيل والخفيف من الأصوات .

٢ ــ الاسكان :

قال سيبويه : « يجوز أن يسكنوا الحرف المرفوع فى الشعر ، شبهوا ذلك بضمة عضد حيث حذفوا فقالوا : عضد .. قال الشاعر :

رحت وفى رجليك ما فيهما ... وقد بدا هنك من المئزر(٥١)

---

(٤٩) النشر ٢/١٢١ .

(٥٠) كفاية المستفيد فى علم التجويد ص١٢٣ .

(٥١) الكتاب ٤/٢٠٣ .

وواضح من كلام سيبويه أن هذه الظاهرة تأتى فى الشعر كما تأتى فى النثر بهدف التخفيف فقد أثر عن بعض قبائل العرب اسكان الوسط فيما تتابعت فيه ثلاث حركات ما لم يكن الثانى مفتوحا وسبق بمفتوح مثل جمل(٥٢) .

والذى يبدو لى أن تبيان هذه الظاهرة فى الشعر ليس لمجرد التشبيه بما أثر عن العرب التخفيف فيه كما ذكر سيبويه وغيره(٥٣) .

بل للضرورة الشعرية وتعنى هنا اقامة وزن البيت فلو أن لفظة « هنك » جاءت فى البيت بضمة النون بدلا من اسكانها لاختل وزن البيت . وقد علق ابن منظور ت ٧١١ هـ على البيت السابق بقوله : انما سكنه للضرورة .

وبهذا نكون قد توصلنا الى نتيجة مهمة وهى اعمال الذوق العربى فى اقامة وزن الشعر فاذا اضيف انى هذا ما ورد عن بعض قبائل العرب فى كلمات نثرية اسكان الوسط فيما توالت فيه ثلاث حركات بشرط أن يكون غير مفتوح وقبله مفتوح — ويعنى هذا استخفافهم للمفتوح واستثقالهم غيره — اذا كان كذلك علم أثر الذوق البالغ على المستويين الشعرى والنثرى عند العرب .

يقول سيبويه فى « باب ما يسكن استخفافا وهو فى الأصل متحرك » : « وذلك قولهم فى فخذ فخذ ، وفى كبد كبد ، وفى عضد : عضد وفى الرجل : رجل .... وهى لغة بكر بن وائل ، وكثير من بنى تميم ... وانما حملهم على هذا أنهم كرهوا أن يرفعوا ألسنتهم عن

---

(٥٢) انظر لغة تميم د/ضاحي عبدالباقى ص ٢٩١ .

(٥٣) انظر ابن يعيش فى شرح المفصل ٤٨/١ .

المفتوح الى المكسور ، والمفتوح أخف عليهم ، فكرهوا أن ينتقلوا من الأخف الى الأثقل(٥٤) .

ولون آخر من هذه الظاهرة وهو ما توالت فيه الضمتان أو الكسرتان فان العرب يخففون بالمكان الثانى لما الذوق ثقل الضمتين أو الكسرتين وطرحهما مجتمعين .

يقول سيبويه : « واذا تتابعت الضمتان فان هؤلاء يخففون أيضا كرهوا ذلك كما يكرهون الواوين ، وانما الضمتان من الواوين ، فكما تكره اواوان ، كذلك تكره الضمتان ، لأن الضمة من الواو ، وذلك قولك : الرسل ، واطنب والعنق . تريد : الرسل ، والطنب ، والعنق وكذلك الكسرتان تكرهان كما تكره الياءان ، وانما الكسرة من انياء وذلك قولك فى أبل : ابل .

أما ما توالت فيه الفتحتان فانهم لا يسكنون منه ، لأن الفتح أخف عليهم من الضم والكسر ، كما أن الألف أخف من الواو والياء ... وذلك نحو جمل ، وجمل »(٥٥) .

ويؤكد ابن جنى أن ما حدث من مثل هذا فى بعض الكلمات عند العرب انما هو نتاج ذوق خالص وسليم فيقول :

« ومنه اسكانهم نحو رسل وعجز وعضد .... واستمرار ذلك فى المضموم والمكسور ، دون المفتوح ، أدل دليل — بفضلهم بين الفتحة وأختيهما — على ذوقهم الحركات ، واستثقالهم بعضها واستخفافهم الآخر »(٥٦) .

---

(٥٤) الكتاب ٤/١١٣ ، ١١٤ .

(٥٥) المرجع السابق ٤/١١٤ ، ١١٥ .

(٥٦) الخصائص ١/٧٥ .

وحقا ما قاله غما كان تخيرهم بين الحركات على هـذا النحو الا ثمرة من ثمار هذا الذوق المرهف .

واذا كان ما سبق مظهرا ودليل على تذوق العرب للغتهم فيما صغر من الأصوات وهى الحركات ، فلا شـك أن توفره فى الحروف التوام مظهر أوضح ودليـل أقوى .

تذوق الحروف :

ومن ذلك استثقالهم لبعض الحروف ، واستخفافهم بعضـا ، وتقديم الأقوى منها على الأضعف .

وهذا يصنع دليلا آخر من أدلة تذوق العرب للغتهم واحساسهم بها ، وتهذيبهم اياها حتى تكون سهلة النطق سلسة التعبير .

وذلك كان يجتمع حرفان قريبان فى المخرج ، فان أكثر ذلك متروك للاستثقال ونفور الذوق منه .

يقول ابن دريد ت ٣٢١ هـ :

« اعلم أن الحروف اذا تقاربت مخارجها كانت أثقل على اللسان منها اذا تباعدت ، لأنك اذا استعملت اللسـان فى حروف الحلق دون حروف الفم ، ودون حروف الدلاقة كلفته جرسـا واحـدا ، وحركات مختلفة ألا ترى أنك لو ألفت بين الهمزة والهاء والحاء ، وأمكن لوجدت الهمزة تتحول هاء فى بعض اللغات لقربها منها . نجد قولهم فى أم والله : هم والله ، وكما قالوا فى أراق الماء : هراق الماء ، ولوجدت الحاء فى بعض الألسنة تتحول ها ... واذا تبـاعدت مخارج الحروف حسـن وجه التأليف ، واعلم أنه لا يكاد يجىء فى الكلام ثلاثة أحرف من جنس واحد فى كلمة واحدة لصعوبة ذلك على ألسنتهم » .

ويقول أيضا : أحسن الأبنية ما يبنى بأزاج الحروف المتباعدة »(٥٧) .

ويقول ابن جنى تحت « باب فى تدافع الظاهر » :

« من ذلك استحسانهم لتركيب ما تباعدت مخارجه من الحروف نحو الهمزة مع النون ، والحاء مع الباء . نحو آن وناى ، وحب وبح . واستقباحهم ما تقارب من الحروف ، وذلك : حس ، وسص »(٥٨) .

ونستنتج من هذا أن تذوق العرب للحروف يتأتى من خلال تحديد المسافة بين مخارجها ، فما تقارب ثقل ، وما تباعد خف .

وبناء على هذا كان من الحروف ما هو أكثر فى الاستعمال من بعضها . جاء فى المزهر للسيوطى ٩١١هـ : اعلم أن أكثر الحروف استعمالا عند العرب الواو والياء ، والهمزة ، وأقل ما يستعملون على ألسنتهم ثقلها الظاء ، ثم الذال ثم الثاء ، ثم الشين ، ثم القاف ، ثم الخاء ، ثم العين ، ثم النون ، ثم اللام .. »(٥٩) .

فان حدث بأن التقى حرفان قريبان فى المخرج . قدم الأقوى منهما على الأضعف . يقول ابن جنى :

« فمما رفض استعماله لتقارب حروفه نحو سص ، وطس ، وذث وثظ .. وهذا حديث واضح لنفور الحس عنه والمشقة على النفس تكلفه .. وكذلك حروف الحلق هى من الائتلاف أبعد لتقارب مخارجها عن معظم الحروف — أعنى حروف الفم — فان جمع بين اثنين منها قدم الأقوى على الأضعف نحو أهل وأحد ، وأخ ، وعهد ، وكذلك متى

---

(٥٧) الجمهرة ١/٩ .
(٥٨) الخصائص ٢/٢٢٧ .
(٥٩) المزهر فى علوم اللغة ١/٨٥ .

تقارب الحرفان لم يجمع بينهما الا بتقديم الأقوى منهما نحو أرل ، ووتد ، ووطد ... والراء أقوى ، لأن القطع عليها أقوى من القطع على اللام ، وضعف اللام أتاها لما تشربه من الغنة عند الوقوف عليها .. وكذلك الطاء والتاء . هما أقوى من الدال ، لأن جرس الصوت بهما عند الوقوف عليهما أقوى منه عند الوقوف على الدال .. وهم يقدمون الأقوى من المتقاربين من قبل أن جمع المتقاربين مما يثقل على النفس ، فلما اعتزموا النطق بهما قدموا أقواهما لأمرين : أحدهما أن رتبة الأقوى أسبق وأعلى ، والآخر أن المتكلم فى أول نطقه أقوى نفسا ، وأظهر نشاطا ، فقدم أثقل الحرفين ، وهو أجمل الحالين »(٦٠) .

انها فلسفة عميقة تدل على خبرة بدقائق اللغة ، وخصائصها ، والعلم بمخارجها وصفاتها ، وما يحدثه التقارب ، أو التباعد منها مما يحس به الذوق العربى يميل اليه ويهواه ، أو ينفر منه ويأباه .

وفى حديث ابن جنى السابق اشارة الى ما تحدث عنه علماء الأصوات من القوة والضعف فى الصفات ، فالصفات القوية مثل الشدة والجهر والاطباق والاستعلاء والاصمات .

والصفات الضعيفة مثل : الرخاوة والهمس ، والانفتاح ، والاستفال ، والانذلاقه ويرتبط هذا ببذل الجهد العضلى فى الأداء ، فالصفات القوية تحتاج الى جهد كبير والعكس صحيح . وقوة الحرف وضعفه تتوقف على كمية كل نوع فيه ، فان تغلبت صفات القوة على الضعف كان الحرف قويا ، وان تغلبت صفات الضعف على صفات القوة كان الحرف ضعيفا(٦١) .

وابن جنى بحديثه السابق يكون قد سبق المحدثين فيما تعرفوا

---

(٦٠) الخصائص ١/٥٤ ، ٥٥ بتصرف .

(٦١) انظر أصوات اللغة العربية ص ٦٤ ، ٦٥ .

عليه حديثا • وكان من نتائج تذوق هذه الحروف أن ماز العرب بين الحروف التى يتبعها صويت حال الوقف عليها ، والتى لا يتبعها دون علم منهم بأسماء هذه الحروف ، أو مالها من صفات الهمس ، والرخاوة ••• واليك قصة من « الخصائص » تبرهن على ما نقول •

قال ابن جنى :

« ألا ترى أن أعرابيا بايع أن يشرب علبة لبن ولا يتنحنح فلما شرب بعضها كظه الأمر ، فقال : كبش آنحنح • فقيل له : ما هذا ؟ تنحنحت • فقال : من تنحنح ملا أفلح •

أفلا تراه كيف استعان لنفسه ببحة الحاء ؟ واستروح الى مسة النفس بها ، وعدلها بالصويت اللاحق بها فى الوقف ونحن مع هذا نعلم أن الأعرابى لا يعلم أن فى الكلام شيئا يقال له حاء ، فضلا عن أن يعلم أنها من الحروف المهموسة ، وأن الصوت يلحقها فى حالة سكونها والوقف عليها ما لا يلحقها فى حال حركتها ، أو ادراجها فى حال سكونها فى نحو بحر ، ودحر ، الا أنه وان لم يحسن شيئا من هذه الأوصاف صنعة ، فانه يحسنها طبعا (٦٢) •

واذ كان العرب جديرين بتذوقهم للغتهم فطرة وطبعا وسليقة ، فقد حق أن يكون لهم دراية بجرس الحرف وما يتبعه من صويت ، ولا غرابة أن يضاهوا بأجراس الحروف الأفعال التى عبر بها عنها ، فقد قالوا : قضم فى اليابس ، وخضم فى الرطب ، لأن القاف أقوى من الخاء • فجعلوا الصوت الأقوى للفعل الأقوى ، والأضعف للأضعف ••• وقالوا : مد الحبل ، ومت اليه بقرابة • فجعلوا الدال لجهرها لما فيه علاج ، والتاء لهمسها لما لا علاج فيه •

---

(٦٢) الخصائص ٣/٢٧٥ ، ٢٧٦ •

وهكذا يتمسك العرب ببعض أصول الكلم ويرفضون بعضا بناء على ذوقهم الحساس ذلك أن مواد الكلم ملقاة بين أيديهم كمال فى حوزتهم يميزون بين جيده ورديئه فيقبلون الجيد ويتركون الردىء ، وكذلك أصول الكلم يتركون ما قبح تاليفه ، ويقبلون ما حسن تاليفه للحاجة اليه • والمدار فى هذا على عمل الذوق واحساسه •

ولم يقف الأمر عند هذا الحد من تذوق العرب للغة حركة ، وحرفا، بل كان تذوقهم الكلمة واحساسهم بموقعها فى جملة الكلام ، وتأملهم ذلك جيدا •

تذوق الكلمة :

اذا كان العرب قد صاغوا ألفاظهم في أبنية ثنائية ، وثلاثية ورباعية ، وخماسية ، فالملاحظ أن البناء الثلاثي أكثر دورانا من غيره فى الألفاظ •

يقول ابن دريد :

« اعلم أن الثلاثى أكثر ما يكون من الأبنية »(٦٣) •

وما ذلك الا لاحساس العرب باعتدال تركيبه ، وتذوقهم لخفته، ويعلل ابن جنى لهذا بقوله :

« أعدلها تركيبا الثلاثى ، لأنه حرف يبتدأ به ، وحرف يحشى به ، وحرف يوقف عليه ، وليس اعتدال الثلاثي لقلة حروفه حسب ، لو كان كذلك لكان الثنائى أكثر منه ، لأنه أقل حروفا ••• بل شىء آخر ، وهو حجز الحشو الذى هو عينه ، بين فائه ولامه ، وذلك لتباينهما ، ولتعادى

---

(٦٣) الجمهرة ١٣/١ •

حاليهما ، ألا ترى أن المبتدأ لا يكون الا متحركا ، وأن الموقوف عليه لا يكون الا ساكنا ، فلما تنافرت حالاهما وسطوا العين حاجزا بينهما ، لئلا يجيئوا الحس بضد ما كان آخذا فيه ، ومنصبا اليه »(٦٤) .

ومن هذا يتضح ما للعرب من وعى وبصيرة فى تذوق الكلمات وايرادها فى استعمالاتها تلك ، وذكره .

واذا كان هذا تذوق الكلمة فى صياغتها وهيئتها ، فان هناك تذوق من نوع آخر ذلك الذى يكون فى اشتقاق الكلمة .

فتذوق العرب للغتهم فرض عليهم امتلاك ناصيتها ، فكان الواحد منهم يتصرف فى الكلمة بفطرته وسليقته ، وهو لا يعرف عن التصريف ، أو الاشتقاق شيئا ، لعدم وجود قوانين تراجع ، أو يعتصم بها عند الحاجة ، والسبب هجوم الطبع على النطق ، واستهواء الشىء فينحرف به عن القصد ،وما ذلك الا لحسن الطبع ولطف الحس .

والمعنى أنهم يأخذون من الكلمة أخرى ، فيبتعدون بها عن الأصل لربط الذوق بين هذه الكلمة ، وأخرى فى الظاهر لا فى الأصل .

وتوضيح ذلك ما أورده ابن جنى مستشهدا ببعض الأبيات الشعرية فيقول :

من ذلك ما أنشده أحمد بن يحيى :

غدا مالك يرمى نسائى كأنما
نسائى لسهمى مالك غرضان

---

(٦٤) الخصائص ١/٥٥ ، ٥٦ .

فيا رب لاتـــرك لى جهينـــة أعصـــرا
فما لك مـــوت بالضـــاء دهـــاتى(٦٥)

وحقيقة لفظه غلط وفســـاد ، وذلك أن هذا الأعرابى لمـــا سمعهم يقولون : ملك الموت ، وكثر ذلك فى الكـــلام ، سبق اليه أن هـــذه اللفظة مركبة من ظاهر لفظه فصارت عنده كأنها فعل ، لأن « ملكـــا فى اللفظ على (وزن فلك) فبنى منها فاعلا فقال : مالك موت ، وغدا مالك ، فصار فى ظاهر لفظه كأنه فاعل ، وانما مالك .. على الحقيقة (ما فل) كما أن ملكا (فعل) ، وأصـــله ملأك ، فألزمت همزته التخفيف ، فصار ملكا ، واللام فيه فاء ، الهمـــزة عين ، والكاف لام هذا أصل تركيبه ، وهو (ل . أ ك) وعليه تصرفـــه ، ومجيء الفعل .....

فان قلت : فمن أين لهذا الأعرابى ـ مع جفائه وغلظ طبعه ـ معرفة التصريف حتى بنى من ظاهر لفظ ملك فاعلا ، فقال : مالك . قيل : هبه لا يعرف التصريف . أترى لا يتمكن بطبعه ، وقـــوة نفسه ، ولطف حسه هذا القدر ! هذا ما لا يجب أن يعتقده عارف بهم(٦٦) .

وقد انضم الى ابن جنى فى الحكم بأن هذا من غلط الشـــعراء ابن منظور عندما قال : فانه ظن ملك الموت من م ل ك ، فصـــاغ ملكا من ذلك ، وهو غلط منه ، وقد غلط بذلك فى غير موضع من شعره(٦٧) .

ونحن لم نأت بهذا الكلام دليلا على غلط الشعراء ، وانما أتينـــا به دليلا على تصرف العربى فى فوائد لغته بما يمتلكه من لطف حس ، وقوة طبع ، ورهـــافة ذوق .

---

(٦٥) البيتان لرويشد الطائى كما ورد فى اللسان « لأ ك » ٥/٣٩٧٥

(٦٦) الخصائص ٣/٢٧٣ : ٢٧٥ .

(٦٧) اللسان ٥/٣٩٧٥ لأ ك .

فبمجرد أن نحفظ على صورة اللفظ الذى معه تصرف فيما معه وان كان هذا التصرف لا يتفق ونظام اللغة وقوانينها — لأن ما لحقه يتصرف فيه بذلك .

ونزيدك لونا آخر من ألوان تذوق العرب للكلمة . ذلك الذى يكون عن خبرة دقيقة فى تأمل موقع الكلمة الموقع الصحيح من العبارة ، ويعنى الاعراب الصحيح بعيدا عن وباء اللحن ، وفتك الأخطاء .

يقول ابن جنى : سألت أبا عبد الله العقيلى ... : فقلت له : كيف تقول ضربت أخوك ؟ فقال أقول : ضربت أخاك ، فأدرته(٦٨) على الرفع فأبى ، وقال : لا أقول أخوك أبدا ، قلت : فكيف تقول : ضربنى أخوك فرفع . فقلت : ألست زعمت أنك لا تقول : أخوك أبدا ؟ فقال: ليس هذا ! اختلفت جهتا الكلام .

فهل هذا الا أدل شىء على تأملهم مواقع الكلام ، واعطائهم اياه فى كل موقع حقه ، وحصنه من الإعراب عن ميزة وبصيرة ، وأنه ليس ارتجالا ولا ترجيحا »(٦٩) .

ولا شك أن الموقع لا يكون صحيحا للكلمة الا بالاعراب الصحيح لها وهذا لا يأتى الا عن ذوق سليم ، وخبرة واعية ، ودراية كاملة ، بتأمل مواقع الكلمة فى العبارات وموازنتها بين أرجاء الجمل .

وهكذا يأتى عن العرب ما يدل على تذوقهم جميع مكونات اللغة ، واحساسهم بها حركة وحرفا ، وجرسا ، وكلمة ، وكلاما .

---

(٦٨) يقال أدرت فلانا على الأمر اذا حاولت الزامه اياه .

(٦٩) الخصائص ١/٧٦ .

وكأنى بهم يبنون للغتهم نظاما ذوقيا يخضعون الكلم له شأنها شأن سائر النظام قبلوه ، وما لم يسايره رفضوه •

ـ الذوق العربى وأنظمة اللغة ـ

والذى نقصد الوصول اليه مما ندرجه تحت هذا العنوان أن أنظمة اللغة شيء تعرف اللغويون القدامى على تشكيله بناء على ذوقهم واحساسهم ، وأن ما ذكره المحدثون بصدده لا يخرج عن مصطلحات مستحدثة أشار اليها القدماء بالايحاء وان لم يذكروها بالتصريح •

فالنظام اللغوى العام كما تصوره الباحثون فى علم اللغة يتكون من عدة أنظمة : صوتية وصرفية ، ونحوية ، ودلالية • تتداخل جميعها فتكون هذا النظام العام •

١ ـ الانظام الصوتى :

يتألف من عدة وحدات صوتية (حروف وحركات) يطلق على الواحدة منها عند المحدثين اصطلاح الفونيم وتقسم الفونيمات على أساس الوظيفة التى يؤديها الفونيم(٧٠) •

وقد يكون الفونيم وظيفيا فى لغة ، وغير وظيفى فى لغة أخرى ، لأن النظام الصوتى يختلف باختلاف الجماعات اللغوية ، وهو الذى يحدد ما اذا كان صوتان معينان يمثلان فونيمين مختلفين ، أو صورتين صوتيتين لفونيم واحد ، والمدار فى ذلك على تغيير الدلالة ، فان حدث تغيير فهما فونيمان مختلفان ، وان لم يحدث فهما صورتان صوتيتان لفونيم واحد •

---

(٧٠) انظر أصول تراثية فى علم اللغة ص ١٧٠ •

ومثال ذلك انـ ...K ، والـ ...ن في الانجليزية لا يفرقان بين المعاني بل يعدان فونيمين مختلفين ، أما في العربية فيعدان فونيمين مختلفين في مثل : قلب ، وكلب ... (٧١) .

وهكذا يكون الفونيم وظيفيا في لغة ، وغير وظيفي في أخرى ، ونستطيع أن نعرفه بأنه أصغر ما يحدث أختلافا في المعنى من الوحدات(٧٢) .

وقد رأى بعضهم أن الفونيم وحدات تركيبية لا يمكن تجزئتها لأصغر منها وهي عبارة عن صفات تركيبية تميز الفونيم عن غيره ، وطبقا لهذا يحلل الفونيم الى ملامح وصفية تتصل بنطق الفونيم : تتمثل في الجهر والهمس واللثوية والأسنانية .... الخ وتتنوع الفونيمات بمقدار ما تحمله من هذه الملامح(٧٣) .

ولا يقتصر التغاير في المعنى على الصوامت بل قد يكون في الصوائت مثل كتب للمعلوم ، وكتب للمجهول ، وكتاب ، وكاتب ..

هذا ما قاله المحدثون في النظام الصوتي ومكوناته فماذا عنه عند اللغويين القدامى ؟

يقول أبن جني .

« ان الحرف الساكن ليست حاله اذا أدرجته الى ما بعده كحاله لو وقفت عليه ، وذلك لأن من الحروف حروفا اذا وقفت عليها لحقها

---

(٧١) انظر الدلالة الصوتية ١٦٩ وأسس علم اللغة ١٧ : ١٩ .

(٧٢) مناهج البحث في اللغة د/تمام حسان ص ١٦٢ .

(٧٣) انظر الدلالة الصوتية ص ١٧٢ بتصرف .

صُوِّيت ما من بعدها، فاذا أدرجتها ضعف ذلك الصويت نحو : اص ، وات وأخ . فاذا قلت : يحرد ، ويصبر ، ويدرج .. خفى ذلك الصويت وقل ما كان له من الجرس عند الوقوف عليه »(٧٤) .

مما هذا من القدماء الا معرفة بالقيمة الصوتية للصوت ، واحساسا بحاله فى الوقف والوصل .

وما هو الا حديث عن النسق والنظام الصوتى لأبنية الكلمات ، وهم وان لم يصرحوا بلفظة فونيم فقد فطنوا الى مفهومه ، وبالذات الذى رآه بعضهم من أنه وحدات تركيبية قابلة للتحليل الى ملامح وصفية تتصل بنطق الفونيمات تتمثل فى الجهر والهمس ... الخ .

ويتضح ذلك من نقلهم عن العرب أنهم قالوا : مد الحبل ، ومت اليه بقرابة فغايروا بين الأصوات للتغاير فى الدلالة ، وقالوا ان الدال لما فيها من الجهر تكون لما فيه علاج ، والتاء لما فيها من الهمس تكون لما لا علاج عليه .

وقد مثلت كتب المثلثات جهد العلماء فى الدرس اللغوى ومدى فهمهم أن الاختلاف فى الصوائت يتبعه أختلاف فى المعنى .

ومثال ذلك كلمة « الحل » التى يختلف معناها حسب اختلاف حركة الحاء بين الفتح والكسر والضم .

فهى بالفتح ضد العقد ، وبالكسر الحلال ، وبالضم جمع الأحل من الخيل وهو الذى فى قوائمه لين ورخاوة ..(٧٥) وغير ذلك من الكلمات .

---

(٧٤) الخصائص ١/٥٧ .

(٧٥) المثلث للبطليوسى ١/٤٣٢ . ومناهج البحث فى اللغة ص٢٠٤

٣ ــ النظام الصرفي :

ويتكون من وحدات صرفية اصطلح المحدثون على الواحدة منها باسم المورفيم • ويعبر المورفيم عن معان نحوية كالفاعلية والاسمية ، والفعلية ، والجنس والعدد ، وغير ذلك من المعاني التي تؤديها الاضافات ، أو الالصاقات التي تظهر في شكل سوابق أو لواحق، أو دواخل •

وهناك تعريفات متعددة للمورفيم أيسرها أنه : أصغر وحدة في بنية الكلمة تحمل معنى أو وظيفة نحوية(٧٦) •

وقد صنف علماء اللغة المورفيم الى أشكال متعددة منها :

١ ــ شكل يظهر فيه المورفيم في صورة عنصر صوتي يتكون من صوت واحد أو أكثر كقولنا : أكتب ونكتب ، وتكتبان •••• وكاتبة ، وكاتبون فالمعنى عام ، والمورفيمات تحدد نوع الكلمة : اسم ، وفعل وجنس وعدد •

٢ ــ وشكل يظهر فيه المورفيم في صورة ترتيب العناصر الصوتية داخل الصيغة الصرفية ، ويقوم هذا الترتيب بالدلالة النحوية ويمثله التمييز بين اسم الفاعل واسم المفعول ، وبين المبنى للمعلوم والمبنى للمجهول كفتح ، وفتح ، وقد يظهر هذا الشكل فيما يعرف بالتنغيم والنبر والوقف فقد تكون هناك صيغتان متحدتان من الناحية الصوتية، ولا يفرق بين دلالتيهما الا النغمة •

فقد ننطق : اضرب بنغمة اجابة لأمر بالضرب ، وقد ننطقها بنغمة أخرى بما يوحي بالرفض(٧٧) •

---

(٧٦) انظر أسس علم اللغة ص١٠٠ •

(٧٧) انظر أصول تراثية ٢١٤ : ٢٢٦ ، وقارن باللغة لفندريس ١٠٦ ، ١١١ •

ويتضح من هذا أن الكلمات فى النظام الصرفى تستمد دلالتها من الأصوات الصامتة والصائتة ، وذلك من خلال توزيع الصوائت داخل بنية الكلمة ؛ وزيادة الصوامت أول الكلمة ، أو وسطها أو آخرها .

وقد وجدت من حديث قدامى اللغويين ما يدل على معرفتهم بهذا النظام الصرفى الذى عناه المحدثون ، ومعرفتهم كذلك بفروق الدلالة الناتجة عن المورفيمات ، أو الوحدات الصرفية التى تلحق الأبنية فى أولها . أو وسطها أو آخرها .

وتلك بعض نماذج مما يدل على ذلك .

يقول سيبويه :

« أعلم أنك اذا ثنيت الواحد لحقته زيادتان : الأولى منهما حرف المدواللين ، وهو حرف الاعراب غير متحرك ولا منون ... وتكون الزيادة الثانية نونا كأنها عوض لما منع من الحركة والتنوين ، وحركتها الكسر وذلك قولك : هما الرجلان ، ورأيت الرجلين ، ومررت بالرجلين »(٧٨) .

ويحدثنا سيبويه عما يلحق من الوحدات الصرفية بالأبنية فيدل على الوظائف النحوية فيقول .

« الألف تلحق ثانية ، ويكون الحرف على فاعل فى الاسم والصفة نحو كاهل وضارب ... وتلحق ثالثة للجمع فى الاسم نحو مساجد والصفة نحو مغافل ... وتلحق الألف رابعة للتأنيث فيكون على فعلى فالاسم : سلمى .. والصفة عطشى(٧٩) .

---

(٧٨) الكتاب ١/١٧ ، ١٨ .

(٧٩) المرجع السابق ٤/٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٥ .

ويحدثنا كذلك عن بعض الأصوات الصامتة التى تصنع سوابق للكلم فتحدث دلالة زمنية فيقول :

«أعلم أن للهمزة والياء والتاء والنون خاصة فى الأفعال ليست لسائر الزوائد، وهن يلحقن أوائل فى كل فعل مزيد وغير مزيد اذا عنيت أن الفعل لم تمضه . وذلك قولك : أفعل ، ويفعل ونفعل وتفعل(٨٠) .

ويقول ابن جنى :

« من ذلك أنهم جعلوا استفعل فى أكثر الأمر للطلب نحو استطعم، واستوهب من ترتيب الحروف على ترتيب الأفعال . وتفسير ذلك أن الأفعال المحدث عنها أنها وقعت عن غير طلب انما تفجأ حروفها الأصول، أو ما ضارع بالصنعة الأصول . فالأصول : طعم ووهب .. اخبار بأصول فاجأت عن أفعال وقعت ، ولم يكن معها دلالة على طلب ... كذلك اذا أخبرت أنك سعيت فيه وتسببت لها وجب أن تقدم أمام حروفها أحرفا زائدة على تلك الأصول تكون كالمقدمة لها .. وذلك نحو استفعل فجاءت الهمزة والسين والتاء زوائد ، ثم وردت بعدها الأصول . الفاء والعين واللام ... وذلك أن الطلب للفعل والتماسه تقدمه ، ثم وقعت الاجابة اليه ... فكما تبعت أفعال الاجابة أفعال الطلب كذلك تبعت حروف الأصل الحروف الزائدة التى وضعت للالتماس »(٨١) .

ويقول فى موضع آخر :

« وقد اتبعوا اللام فى باب المبالغة العين ، وذلك اذا كررت العين

---

(٨٠) المرجع السابق ٤/٢٨٧ .

(٨١) الخصائص ٢/١٥٣ ، ١٥٤ بتصرف .

معها فى نحو ومكملك ، وصمصمح ... والموضـــع فى ذلك للعين وانما ضافتها اللام هنا تبعا لها ولاحقة بها . ألا ترى ما جاء عنهم للمبالغـــة من نجـــى اجلواف ...(٨٢) .

وهكذا نخرج من نصوص قدامى اللغويين بنتيجتين :

الأولى : أن اللغويين القدامى كانوا على علم تـــام بالنظام الصرفى للغة العربية وما تصنعه الوحدات الصرفية سوابق أو لواحق أو دواخل فى الدلالة على الوظائف النحوية تلك التى اصطلح عليها المحدثـــون بالمورفيمـــات .

الثانية : أن العرب ذوقا واحساسا أفادهم فى الحاق بعض أصوات معينة الكلم العربى حسب ما تقتضـــيه دلالة الكلمة ، والموقع الصحيح لهذه الأصوات الملحقة بما يتناسب والمعنى .

٢ ـ النظـــام النحـــوى :

وهذا النظام يقـــوم على أسس منها ما يقدمه علم الصـــوتيات والصـــرف له من قرائن صوتية أو صرفية كالحركات والحروف والصيغ الصرفيـــة .

ذلك أن النحو لا يتخـــذ لمعاينة مبان من أى نوع الا ما يقدمـــه له الصرف من المبانى ، وهذا هـــو الســـبب الذى جعل النحاة أحيانـــا

---

(٨٢) المرجع السابق ٢/١٥٥ ، ١٥٦ . وفى موضع آخر يقول ابن جنى : « ويدلك على تمكن المعنى فى أنفسهم تقديمهم حروف المضارعة فى أول الفعل اذ كن دلائل على الفاعلين : من هم ، وما هم ، وكم عدتهم نحو : أفعل ، ونفعل ، وتفعل ، ويفعل . المرجع السابق ١/٢٢٤ ، ٢٢٥ بتصرف .

لا يستطيعون الفصل بين النحو والصرف • ومن هنا جاءت متون القواعد مشتملة على مزيج من هذا وذاك يصعب معه اعطاء ماللنحو للنحـــو وما للصرف الصرف(٨٣) •

« ولا يمكن أن تقوم دراسة نحوية صحيحة دون أن يدخـل فى منهجها علم الأصوات ، وعلم التشكيل الصوتى ، وعلم الصرف »(٨٤)•

ولا أدل على ذلك من قولنا : ما أحسن السماء ، فبفتح الهمـــزة يكون التعجب ، وبكسرها يكـون الاستـفهام ، وبالضـم يكون نفى الحسن عنـها •

وكـذلك قولنـا :

لا تأكل السمك وتشرب اللبن • فجزم الفعل « تشرب » بمعنى النهى عن أكل السمك وشرب اللبن مطلقا ، ونصبه يعنى النهى عن الجمع بينهما معا • والرفع يعنى النهى عن أكل السمك واباحة شرب اللبن •

ومن هذا يتضح أن أختلاف القيمة الصـوتية المصاحبة للاسـم والفعل بين الفتح والكسر والضم وهن صوائت ، والجزم وهـو صامت فى النظام الصوتى أدى الى اختلاف فى الدلالة لهذين التركيبين(٨٥)•

ومما يؤخذ به من كلام القدماء دالا على نظـام نحوى تركيبى عندهم اهتمام العرب فى نطقهم برتبة الفاعل والمفعول اهتمـاما يظهر

---

(٨٣) انظر اللغة مبناها ومعناها ١٧٨ •

(٨٤) مناهج البحث فى اللغة ٢٢٨ •

(٨٥) انظر الدلالة الصوتية ١٨١ ، ١٨٢ •

فى تقديم الفاعل واحداث تغيير فى صورة الفعل عند اسناده المفعول دلالة على حذف الفاعل ونيابة المفعول عنه .

يقول سيبويه :

« قولك : ضرب عبد الله زيدا ... انتصب زيد ، لأنه مفعول تعدى اليه فعل الفاعل ، فان قدمت المفعول وأخرت الفاعل جرى اللفظ كما جرى فى الأول ، وذلك قولك : ضرب زيدا عبد الله ، لأنك انما أردت به مؤخرا ما أردت به مقدما ... وهو عربى جيد كثير ، كأنهم انما يقدمون الذى بيانه أهم لهم ، وهم ببيانه أعنى ، وان كانا جميعا يهمانهم ، ويعنيانهم »(٨٦) .

ويقول ابن جنى :

« أن العرب لما قوى فى أنفسها أمر المفعول حتى كاد يلحق عندها برتبة الفاعل ... خصوا المفعول اذا أسند الفعل اليه بضربين من الصنعة أحدهما تغيير صورة المثال مسندا الى المفعول عن صورته مسندا الى الفاعل ، والعدة واحدة نحو ضرب زيد ، وضرب ... والآخر أنهم لم يقنعوا بهذا القدر من التغيير حتى تجاوزوه الى أن غيروا عدة الحروف مع ضم أوله ... نحو قولهم : أحببته ، وحب ...»(٨٧)

وهذا يشعرنا بأن العرب من خلال ذوقهم واحساسهم بمواقع الكلم فى العبارات وتركيبها فى الجمل جعلوا لها نظاما يخصها ورموزا تؤدى اليها وتدل عليها .

---

(٨٦) الكتاب ١/٣٤ .

(٨٧) الخصائص ٢/٢١٨ وينظر فصيح ثعلب ـ خفاجى ص ١٤ : ١٧

ويؤكد هذا ما أفاده بعض المفسرين من أن العرب كان لديهم تذوق في فهم المعنى وتغييره عندما يحدث تغيير فيما اصطلح عليه المحدثون بالصوائت في ترتيب الجمله .

ففي قوله تعالى :

« أن الله بريء من المشركين ورسوله »(٨٨) قرأ الجمهور بالرفع على الابتداء ، والخبر محذوف لدلالة ما قبله عليه ، والتقدير ورسوله بريء منهم ، وقرأ بعضهم : رسوله بالنصب عطفا على لفظ اسم ان وأجاز الزمخشري أن ينتصب على أنه مفعول به ، وقرىء بالجر شذوذا وروى أن أعرابيا سمع من يقرأ بالجر فقال : ان كان الله بريء من رسوله فأنا منه بريء فبلغ القارىء الى عمر ، وحكى الأعرابي قراءة القارىء ، وعندها أمر بتعليم العربية »(٨٩) .

فهل هذا منهم الا تذوق واحساس بنظام الجمل ، ووعي بما يناسب المعنى ودور النطق السليم في ذلك !

وهكذا تكون ملكة الذوق عند العرب قادرة على تشكيل أنظمة اللغة صوتية ، وصرفية ، ونحوية التي تتشابك مكونة النظام اللغوي العام الذي ينبغي للنطق أن يتفق معه ، ويسايره والا بأن انحرف عنه عد مخالفا لنظام اللغة ، وبالتالي ينفر منه الذوق ويأباه .

عدم مسايرة الكلام النظام اللغوي وموقف الذوق من ذلك :

اتضح مما سبق أن أنظمة اللغة على مختلف أنواعها تمثل قوانين صامته تنشد لنفسها الاطراد ، والاطلاق شأنها شأن كل نظام .

---

(٨٨) من الآية ٣ التوبة .

(٨٩) انظر البحر المحيط ٦/٥ .

أما الكلام فهو تطبيق على هذه الأنظمة ، وهو متحرك فكل تطبيق على أى نظام وفى تطبيق الكلام على أنظمة اللغة قد تحدث بعض مشكلات تمنع جريه عليها ومسايرته لها ، فلابد اذا من حل لهذه المشكلات يؤدى الى اتفاق الكلام مع هذه الأنظمة ، وذلك هو اتجاه الذوق وهدفه ، لأن عدم المسايرة والاتفاق مما ينفر منه الذوق العربى ويرفضه .

وتتنوع الحلول بتنوع المشكلات ، وتسمى فى علم اللغة الحديث « الظواهر التنسيقيه » مثل :

ظاهرة التأثيث ، والوقف ، والحذف ، والاشباع ، والنبر والتقريب والتنغيم .... الخ(٩٠) .

وتوضيح ذلك :

لو أخذنا من « صبر » على مثال : افتعل فان ، فان نظام اللغة يقتضى أن تكون الكلمه « اصتبر » بتاء بعد الصاد

ولكن الذوق العربى يأبى ذلك عند النطق بالكلمة لماذا ؟

لما فى تجاور الصاد مع التاء من ثقل فى النطق ينفر منه الذوق ، لأن فى الصاد اطباق ليس فى التاء . وهذه هى المشكلة .

والحل : تبدل التاء حرفا يتفق مع التاء فى المخرج ، ويتفق مع الصاد فى الاطباق ، وذلك هو الطاء(٩١) .

وهذا التقريب الذى حدث بين التاء والصاد بصوت الطاء هو الظاهرة السياقية التى جىء بها كمسوغ لقبول الذوق العربى كلمة « اصتبر » فى الاستعمال السياقى .

---

(٩٠) انظر اللغة مبناها ومعناها ٢٦٢ ، ٢٦٣ .
(٩١) الخصائص ١/٢٢٩ .

وانما كان الأمر كذلك ، لأن اللغة العربية تكره توالى الأضداد كما تكره توالى الأمثال ، والذى يرضى ذوقها أن يحرص النظام اللغوى لها حال الاستعمال السياقى على التقاء المتخالفين ويرفض التنافر والتماثل .

او أن التنافر ينافى الذوق العربى ، والتماثل يؤدى الى اللبس ، ومن هنا كانت الظواهر السياقية التى ترد فى سياق الاستعمال لتفادى ما تكرهه اللغة من تنافر أو تماثل متجهة الى التخالف (٩٢) .

بعض الظواهر السياقية :

ان الحديث عن جميع الظواهر السياقية فى اللغة أمر تعجز عنه مساحة البحث ، وقد يتطلب مؤلفا منفردا .

لذلك آثرنا ذكر بعض الظواهر السياقية التى من خلالها يتضح ما يفعله الذوق العربى بالكلام حتى يخضعه للنظام اللغوى حال الاستعمال .

١ ـ الحذف :

لا نقصد بالحذف أن عنصرا كان فى الكلام ثم حذف ، ولكن نقصد أن نظام اللغة يقرر وجود عنصر من عناصر الكلم العربى ، ويأبى الذوق العربى حال الاستعمال وجوده لما يترتب عليه من ثقل مرفوض .

وعند القدماء من اللغويين نصوص من خلالها يتضح تعدد أشكال المحذوف : كحذف الحركة ، وحذف الحرف ، وحذف بعض من الكلمة .

ولا بد من الحذف تمشيا مع سياق الكلام المستعمل الذى يتطلب الخفة عندما يكون البقاء يؤدى الى الاستثقال .

---

(٩٢) انظر اللغة مبناها ومعناها ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

ـ حـذف الحـركة :

عندما يصطدم الذوق العربى بثقل فى بعض عناصر الكلم العربى فان العـرب ينبعون طرقا تهدف الى التخفيف فى النطق ارضاء للذوق ، فاذا اسـتثقلت الحركه فان العرب يضـعفونها ويختلسـونها ، وقد يتجاوزون ذلك فيحذفونها .

وتراهم يتخيرون بين الحـركات فيتجهون بالحذف الى الضـمة والكسرة لثقلهما ، ويتركون الفتحة فى غالب الأمر لخفتها .

فهل هذا الا لقوة نظرهم ولطف استشفافهم وسلامة ذوقهم .

يقول ابن جنى :

« سألت غلاما من آل المهيا فصيحا عن لفظة من كلامه لا يحضرنى الآن ذكرها ، فقلت : أكذا ، أم كذا ؟ فقال : كذا بالنصب ، لأنه أخف ، فجنح الى الخفة » (٩٣) .

ومن أمثلة حذف الحركة عندهم :

قال سيبويه : وقد يجوز أن يسكنوا الحرف المرفوع والمجرور فى الشعر شبهوا ذلك بكسرة فخذ حيث حذفوا فقالوا : فخذ ، وبضـمة عضد حيث حذفوا فقالوا : عضد .

قال الشاعر (٩٤) :

رحت وفى رجليـــك ما فيهما
وقـــد بداهنـــك من المئزر

---

(٩٣) الخصائص ١/٧٨ .

(٩٤) البيت للأقيشر الأسدى فى الخصائص ١/٧٤ والمحتسب ١/١١٠ وشرح المفصل ١/٤٨ وهامش (٤) فى الكتاب لسيبويه ١/٣٤ . والهن : كناية عن كل ما يقبح ذكره ، أو مالا يعرف اسمه . والشاهد تسكين نون هنك وأصله الضم .

وقال الراجز :

اذا اعوججن قلت صاحب قوم
بالدو أمثال السفين العوم (٩٥)

فسألت من ينشد هذا البيت من العرب ، فزعم أنه يريد « صاحبى » ..... ولم يجىء هذا فى النصب ، لأن الذين يقولون : كبد ، وفخذ لا يقولون فى جمل : جمل (٩٦)

ويقول ابن جنى :

« نظير حذف الحروف التخفيف حذف الحركات فى نحو قوله :

* وقد بدا هنك من المئزر *

بسكون النون من « هنك »

.... وقوله .

سبروا بنى العم بالأهوار منزلكم
ونهر تيرى ولا تعرفكم العرب (٩٧)

أى ولا تعرفكم ، فاسكن مضطرا » (٩٨) .

وقد يكون الحذف فى هذه النماذج لاقامة وزن البيت ، وعلى كل فهو جنوح للتخفيف وبعد عن الثقل الذى يرفضه الذوق العربى .

---

(٩٥) البيت لأبى نخيلة : اعوججن . أى الأبل . والدو : الصحراء : والسفين العوم : السفن العائمة : انظر هـ (٣) من الكتاب ٢٠٣/٤ واللسان ٣١٧٨/٤ عوم .

(٩٦) الكتاب ٢٠٣/٤ ، ٢٠٤ .

(٩٧) البيت لجرير كما ورد فى الخصائص ٧٤/١ وانظره فى المخصص ١٨٨/١٥ .

(٩٨) الخصائص ٣١٧/٢ وانظر ٧٤/١ .

ـ حـذف الحـرف :

نقصد به غير حرف المد فذلك يدخل فى ظاهرة الاعلال والابدال • وما جاء من أمثلة لهذا النوع من الحذف من كلام العلماء الأوائل :

ـ حذف الهمزة من الفعل المـاضى الرباعى المبدوء بها عندما تدخل عليها همزة المضارعة لمـا يترتب على ذلك من استثقال بسبب اجتماع الهمزتين •

يقول ابن جنى :

« ومن ذلك حملهم حروف المضارعة بعضها على حكم بعض ، فى نحو حذفهم الهمزة فى نكرم وتكرم ، ويكرم ، لحذفهم اياها فى أكرم ، لمـا كان يكون هنـاك من الاسـتثقال لاجتمـاع الهمزتين فى نحـو أو كرم •••• » (٦٩) •

فنظام اللغة يقرر أن « أكرم » عند اشتقاق المضارع منها للمتكلم تكون « أؤكرم » باجتماع همزتين • واستعمال الكلام ونطقه يكره ذلك ويأباه لنفور ذوق العرب منه لمـا فيه من ثقل اجتماع المثلين ، فلا بد من حذف احداهما ازالة لهذا الاشكال •

فتحذف همزة المـاضى ، لأنها وحدة صوتية

غير ذات معنى ، وتبقى همزة المضارع ، لأنها وحدة صرفية

ذات معنى وهى المضارعة •

واذا كان اجتماع المثلين يؤدى الى الثقل فيحذف أحدهما بغيـة التخفيف ، فلا شك أن الحذف عند اجتماع الأمثال أولى •

---

(٦٩) الخصائص ١/١١١ •

ومثال ذلك قولهم فى تصغير أحوى : أحى . فنظام اللغة يقتضى فى مثل هذا عند التصغير : أن يضم الأول ويفتح الثانى ، وتزاد ياء التصغير ثالثة ، فتصير الكلمة « أحيوى » ، فتقع الواو بين ياءين ، وذلك ثقل بمجه ذوق العرب ، فلأجل التخفيف تقلب الواو ياء ، فتصير فى الكلمة ثلاث ياءات ، وذلك أثقل بسبب اجتماع الأمثال ، فتحذف احدى يائى الكلمة ، وتبقى ياء التصغير ، لأنها وحدة صرفية ذات معنى مدغمة فى الياء الباقية فتصير الكلمة أحى (١٠٠) .

ـ حـذف بعض الكلمـة :

اذا كان العرب قد حذفوا الحركة ، وهى ضعيفة لما تؤدى اليه من ثقل أحيانا وكان حذفهم للحرف من باب أولى ، لأن ثقله أظهر وأقوى ، فانهم ذهبوا الى أبعد من ذلك حين حذفوا بعض الكلمة ايثارا للتخفيف وحبا فيه .

ولا غرو فهم القائلون : « رب اشارة أبلغ من عبارة » ففى الخصائص :

« نعم وقد يحذفون بعض الكلم استخفافا ... ألا ترى الى قول علقمة :

كأن ابريقهم ظبى على شرف
مفدم بسبا الكتان ملثوم(١٠١)

أراد بسبائب (١٠٢) .

---

(١٠٠) انظر الخصائص ٣/٢٠ .

(١٠١) المفدم : الذى على فمه خرقه وملثوم متلفف بها من تلثم بعمامته اذا شدها على فمه . انظر اللسان . فدم ، ولثم . وانظر البيت فيه ٣/١٩١٠ سبب .

(١٠٢) فى اللسان : أراد سبائب فحذف واحدها سبيبة وهى الشقة

وقـــول لبيـــد :

درس المنا بمتالع فأبان •
أراد المنـــازل •••

وقول أبى داود :

يذرين جندل حائر نجدوبها
فكأنما تذكى سنابكها الحبا

أى تصيب بالحصى فى جريها جنونها • وأراد الحباحب •

وقال الأخطل :

أمست منـاها بأرض ما يبلغها
بصـــاحب الهم الا الجسرة الأجد (١٠٣)

قالوا : يريد منازلها ، ويجوز أن يكون مناها قصدها (١٠٤) •
وقد علق ابن منظور على البيت السابق بقوله :

« قيل : أراد قصدها ، وأنت على قولك • ذهبت بعض أصابعه •••
وقد قيل : أن الأخطل أراد منازلها فحذف » (١٠٥) •

البيضاء من الثوب • اللسان ٣/١٩٠٩ ، ٦٩١٠ سبب وذكر ابن سيده بعد أن أورد عجز البيت أن السباهى السـبائب وليس عـلى الحـذف • المخصص ١٥/١٦٧ •

(١٠٣) الجسرة : الناقة الطويلة الضخمة الماضية • والأجد : الناقة القوية • انظر اللسان ١/٣١ ، ٦٢٣ • أجد ، وجسر •

(١٠٤) الخصائص ١/٨٠ ، ٨١ •

(١٠٥) اللسان ٦/٤٢٨٣ متى وانظر ٦/٤٤٠٠ نزل •

ويبدو أن الحذف هنا ليس للاستخفاف فقط كما ذكر ابن جنى بل قد يكون لاقامة وزن الشعر •

وقد ذكر بعضهم أن مثل هذا الحذف من الشاذ (١٠٦) •

وسواء أكان هذا أم ذاك ، فان الاستثقال ، واعوجاج بيت الشعر شيء يرفضه الذوق العربى ويكرهه •

والخلاصة ان ظاهرة الحذف قد كشفت عن ازاحة الاشكال الذى قد يحدث عند تطبيق الكلام على النظام اللغوى ، ولولا مثل هذه الظاهرة لتعسر النطق وأبى ذوق العرب مثل هذه الأساليب •

٢ ــ الاشباع فى الحروف :

الاشباع هو الزيادة على الأصل فى زمن نطق الصوت الصائت قصيرا كان أو طويلا • وهذا يعنى أن الاشباع يكون فى الحركة كما يكون فى حرف المد •

واشباع الحركة ينشأ عنه حرف المد الذى هو من جنسها فاشباع الفتحة ينشأ عنه الألف واشباع الضمة ينشأ عنه الواوا واشباع الكسرة ينشأ عنه الياء(١٠٧) •ونحن نقصر هذه الظاهرة على الاشباع فى الحروف ، لأنها ظاهرة سياقية يتخلص بها من بعض مشاكل تحدث حين تطبيق الكلام على النظام اللغوى •

والحروف التى تشبع الألف والواو والياء إذا كانت سواكن ووقعت بعد حركات مجانسة لها مثل : قام • ويقوم • ويسير •

ونطقها فى مثل هذه الأمثلة نطقا عاديا بمقدار حركتين • لكن هناك

---

(١٠٦) المخصص ١٥/١٦٧ •

(١٠٧) انظر سر صناعة الاعراب ص ٢٠٠ •

مواضع تتمكن فيها زيادتها ويطول زمن النطق بها اداع كتخفيف العبء على النطق ودفع ما قد يوقع فى الوهم ، أو اللبس حال الاستعمال .

ومن هـذه المواضـع :

١ ــ أن يقع بعدها الهمزة فى نحو كساء ، وخطيئة ، ومقروءة .

« وانمـا تمكن المدغمين مع الهمز أن الهمزة حرف نأى منشؤه ، وتراخى مخرجه ، فاذا أنت نطقت بهـذه الأحرف المصوتة قبـله ، ثم تماديت بهن نحوه ظن وتمعن فى الصوت موفين له .... وليس كذلك اذا وقع بعـدهن غيرها . ألا ترى اذا قلت : كتاب ، وسعيد ، وعمود لم تجدهن لدنات ولا ناعمات ولا وافيات مستطيلات كما تجدهن كذلك اذا تلاهن الهمز ، أو الحرف المشدد(١٠٨) .

وذلك أن حيز ومخرج حروف المـد يأتى فى مرحلة متـأخرة عن مكان ومخرج الهمزة .

قال ابن جنى : « مخرج الألف المتحركة التى هى همزة من الصدر ومخرج الألف قوتها من أول الحلق »(١٠٩) .

وقـال ابن الجزرى ت ٨٣٣هـ : الجوف للألف والواو السـاكنة المضموم ما قبلها والياء الساكنة المكسور ما قبلها ، وهذه الحروف تسمى حروف المد واللين ... »(١١٠) .

ويراد بالجوف الذى تنسب اليه فراغ الحلق والفم حيث ينقطـع مخرجها(١١١) فاذا ما نطق جهاز النطق بهـذه المدات ثـم ذهب الى

---

(١٠٨) الخصائص ٣/١٢٥ .
(١٠٩) سر صناعة الاعراب ٤٨ .
(١١٠) النشر فى القراءات العشر ١/١٩٩ .
(١١١) أصوات اللغة العربية د/هلال ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

الهمزة لينطقها أخذ مدة من وقت للنطق مما يعنى الاشباع فى هـــذه الحروف الثـــلاث والا كان من الصعب على الجهاز أن ينطق بها وبالهمز دون اشـــباع •

٢ ــ اذا وقع بعدها حرف مشدد مثل : دابة ، وثمـــود الثوب ، وقصيب بكر •

ويعلل اللغويون للجوء الى الاشباع فى مثل هذه الحـــالة فيقولون بسبب تماديهن اذا وقع المشدد بعدهن فلأنهن سواكن ، وأول المثلـــين مع التشديد ساكن • فيجفو عليهم أن يلتقى ساكنان حشوا فى كلامـــهم فيجعلون طولهن ووفاء الصوت بهن عوضا عن التقـــاء الســـاكنين من تحريكهن ، وكلما رسخ الحرف فى المد تمادى الصوت به وذلك الألف ثم اليـــاء ثم الواو(١١٢) •

وفى قولهم : يجفو عليهم يعنى أن ذوق العرب لا يقبل التقـــــاء الساكنين لعدم أمكانية النطق بهما ، لأن جهاز النطق لا يستطيع النطق بالساكنين الا بحذف أحدهما ، أو تحريكه • واشـــباع المد عوضـــا عن التحـــريك •

٣ ــ أن يوقف عليـــها عند التذكـــر •

والمقصود الوقوف على الكلمة التى آخرها حرف مد فترة زمنيـــة باشباع حرف المد لتذكر الكلمة التى بعدها ، ولذلك سميت هذه المـــدة عند القدماء بمدة التذكر •

بالاضافة الى أن الاشباع يفهم السامع أن المتحدث لم يتم كلامه بعد ، ولذلك كان عدم الاشباع مشكلة تعرض النظام اللغـــوى ، وهى

---

(١١٢) الخصائص ٣/١٢٥ بتصرف •

الوهم الذي يدخل على السامع أن المتحدث تم كلامه ، وليس هناك ما يرتبط به .

ومن هنا كانت ظاهرة الاشباع مما يفي بمطالب السياق حال الاستعمال .

ومثال ذلك : أخواك ضربا ، واخوتك ضربوا ، واضربي فتمد الألف ، والواو والياء عند الوقوف للتذكر خوفا من الوهم واللبس على السامع .

ويعلل ابن جني لوقوع هذه الظاهرة في الاستعمال بقوله :

« وانما مطلت ومدت هذه الأحرف في الوقف وعند التذكر من قبل أنك لو وقفت عليها غير ممطولة ولا ممكنة المدة ، فقلت : ضربا ، وضربوا واضربي ... وأنت مع ذلك متذكر لم توجد في لفظك دليلا على أنك متذكر شيئا ، ولأوهمت كل الايهام أنك قد أتممت كلامك ... لكنك لما وقفت ومطلت الحرف علم أنك متطاول الى كلام تال للأول منوط به معقود ما قبله على تضمنه وخلطه بجملته »(١١٣) .

وهذا يتضح ما للأشباع كظاهرة سياقية من عمل جاد في خدمة المتكلم والسامع معا ، وذلك بازاحة ما ينفر عنه ذوق العرب من ثقل في نطق المتكلم ، ودفع ما قد يوهم ويلبس على السامع .

٣ ــ الاتيان بالضمير المتصل في موضع الاسم الظاهر

وهذه ظاهرة من الظواهر السياقية التي ترفع الاشكال الذي يحدث من جراء الاستثقال ، واللبس عند تطبيق الكلام على النظام

---

(١١٣) المرجع السابق ٣/١٢٨ .

اللغوى مما يكرهه ذوق العرب •

وتعنى وقوع الضمير المتصل موقع الاسم الظاهر الذى فى الامكان أن يعود اليه هذا الضمير •

ذلك أن وجود الاسم الظاهر بدلا من ضميره فى نظام التراكيب اللغوية أمر يؤدى الى اللبس والتكرار الملول فيرفع ذلك بوضع الضمير المتصل موضعه طلبا للخفه مع زوال اللبس •

فلو قلنا زيد ضربت زيدا مجئنا بالعائد على الاسم الأول مظهرا مثله لكان فى ذلك اللبس والاشكال •

بالاضافة الى مثل النطق الناتج عن التكرار •

أما الالتباس فى مثل هذا القول لا يأمن أن يظن أن زيدا الثانى غير الأول ، وأن ما يعود على الأول مازال آنيا فى الكلام فيتوقع أن نقول : فى داره أو معه ••• وهذا وجه الاشكال واللبس •

فاذا قلت : زيد ضربته قطعت بالضمير سبب الاشكال •

وأما مثل النطق الناتج عن التكرار فبسبب اعادة الحروف نفسها فاذا قلت : زيد ضربته • كنت قد وضعت حرفا واحدا مكان ثلاثة وليس هذا الحرف منها • وبه يرتفع المثل الناتج عن التكرار •

ويظهر ذلك فيما اذا كثرة عدة حروفه • فلو قلنا : العبيثران شممت العبيثران لكان الثقل والمل واضح من تكرار تسعة أحرف نفسها بخلاف قولنا : العبيثران التى سحقق فيها الخفه التى يأوى اليها ذوق العرب ويميل(١١٤) •

والخلاصة ان فى مثل هذه الظواهر السياقية دليل شاف على ما يلجأ اليه ذوق العرب فى سياق الكلام المستعمل من حلول يرفع بها

---

(١١٤) المرجع السابق ١٩٣/٢ بتصرف •

ويزيل ما قد يصطدم به من ثقل أو لبس خدمة للمتكلم والسامع معا .

٤ ـ التقريب :

ونقصد بها التقريب بين الأصوات حروفا وحركات ، وقد لعب الذوق العربي دورا بارزا في قضيه الاستخفاف والاستثقال التي تشكل قاعدة تقوم عليها لغة العرب .

فما كان رضي عنه ذوق العرب وكثر دورانه على الألسنة ، وماثقل نفر عنه الذوق وأهمله النطق . وهذا قائم على ائتلاف الحروف وتنافرها ، وذلك أمر قائم على تباعد المخارج وتقاربها وقد تحدث علماء اللغه القدامى عن هذا عندما قالوا :

« أعلم أن الحروف اذا تقاربت مخارجها كانت أثقل على اللسان منها اذا تباعدت ... واذا تباعدت مخارج الحروف حسن وجه التأليف ... وأحسن الأبنية عندهم أن يبنوا بامتزاج الحروف المتباعدة ... (١١٥) .

وعندما قالوا ايضا :

« ومما رفض لاستعماله لتقارب حروفه صص ، وظث ، وضش ، لتقارب الحس عنه ، والمشقة على النفس لتكلفه . وكذلك نحو قج ، وكق ، وكذلك حروف الحلق . هي من الائتلاف أبعد ، لتقارب مخارجها عن معظم الحروف أعني حروف الفم(١١٦) .

---

(١١٥) الجمهرة ١/٩ : ١١ .

الخصائص ١/٥٤ بتصرف وقارن بأبنية العربية في ضوء علم التشكيل الصوتي ١٠ : ١٢ .

وهذا يعني أن الذوق العربي يميل الى التخفيف ، ويتخذ من النطق السهل طابعا يبتعد به عن الاستثقال بأي لون من ألوانه .

والاستعمال السياقي للكلام يتخذ هذا طبيعة له ، واذا ما وجد في نظام اللغة ما يتعارض وهذا المبدأ لجأ الى ظاهرة التقريب ما دام يوصله الى الهدف المنشود الذي هو سر من أسرار اللغة يكمن في سلامة تراكيبها ، وسلاسة عباراتها .

بل قد يتجاوز التقريب الى الادغام ، لأن ادغام الحرف في الحرف أخف لنبو اللسان عنهما نبوة واحدة .

يقول ابن جني :

« يؤثرون في الحرفين المتباعدين أن يقربوا أحدهما من صاحبه ، ويدنوه اليه وذلك نحو قولهم في سويف : صويف ... وفي ازتات ازوات ونحو ذلك مع ايثارهم لتباعد الأصوات اذ كان الصوت مع نقيضه أظهر منه مع قرينه ولصيقه(١١٧) .

ولعل السبب في لجوء العرب لظاهرة التقريب بين الأصوات عند ارادة التخفيف : أنهم أيقنوا أن الادغام أخف من اظهار الحرفين لنبو اللسان عنهما نبوة واحدة مثل شد وقطع .

ولما كان تقريبهم الحرف من الحرف ضربا من التطاول الى الادغام وان لم يصلوا الى ذلك فقد حاولوه . كان في التقريب تخفيف كما في الادغام (١١٨) .

---

(١١٧) الخصائص ٢/٢٢٧ .

(١١٨) المرجع السابق ٢/١٤٠ ، ٢٢٩ .

وقد ألمح علمـــاء اللغة الى التخفيف المقصـــود من وراء ظاهرة التقريب • فسيبويه يقول فى باب ما تقلب فيه السـين صادا فى بعض اللغات «تقلبها القاف اذا كانت بعدها فى كلمة واحدة نحو صقت، وصبقت ذلك أنها ــ أى القاف ــ من اقصى اللسان••• وتصعدت الى ما فوقها من الحنك الأعلى •• فلما كانت كذلك أبدلوا من موضع السين أشـبه الحروف بالقاف ، ليكون العمل من وجه واحد ، وهى الصـاد ، لأن الصاد تصعد الى الحنك الأعلى للاطبـاق »(١١٩) •

ويقول الشيخ خالد فى شرح التصريح :

« وانما ابدلت تاء الافتعال اثر المطبق طاء لاستثقال اجتماع التاء مع الحرف المطبق لما بينهما من اتفـاق المخـرج وتباين الصفة اذ التاء من حروف الهمس • والمطبق من حروف الاستعلاء فأبدل من التاء حرف استـعلاء من مخرج المطبق ، واختيرت الطـاء لكونهـا من مخرج التـاء » (١٢٠) •

وقد كان للعرب فى هذا المجال دقـة بارعة وفلسفة عميقة تتفق وذوقهم للغتهم حسـان الاستعمال والنطق ، فهم فى تقريبهم الحروف فى مثل ما سبق لم يذهبوا الى حد الادغام ، ولو حدث لترتب على ذلك • مخالفة صريحة لنظام لغتهم ، وقوانينها ، فربما أدى الادغام الى خلط الأبنية ، وعدم معرفة أصول الكلـمات ، وربما أدى التـرك الى نقض القواعد ، وكأنه انتكاث • وتراجع ، ولهذا كانت ظاهرة التقـريب بين الحروف بابقائها بين بين(١٢١) •

---

(١١٩) الكتاب ٤/٤٧٩ ، ٤٨٠ •

(١٢٠) شرح التصريح ٢/٢٩١ •

(١٢١) انظر أبنية العربية د/هلال ص ١٤ بتصرف •

بمعنى أننا لو قربنا السين من القاف، فى سويق بقلبها صادا فاننا لم نخرج السين من مخرجها ولا بلغنا بها مخرج القاف حتى يلزم الادغام وذلك فى مثل اصتبر عندما نقول اصطبر •

أما اذا كان الحرفان جميعاً من مخرج واحد وأردنا التقريب فليس الا الادغام مثل اطعن فى اطّعن بعد قلب التاء طاء ، لأن الحروف اذا كانت عن مخرج واحد صاقت مساحتها أن تقرب ، اذ وحدة المخرج هى الغاية فى التقريب ، فان زاد شىء فالادغام •

والتقريب يكون فى الحروف ويكون فى الحركات ويكون بينهما ••

١ ــ التقريب فى الحروف :

ــ تقريب تاء الافتعال من فائه بقلبها طاء اذا كانت الفاء أحد حروف الاطباق : الصاد ، والطاء ، والضاد ، والظاء • نحو : اصطبر ، واطرب واضطرب ، واظطلم • والأصل : اصتبر ، واطترب ، واختترب ، واظتلم •

وعلة التقريب أن هذه الحروف الأربعة مستعلية وفيها اطباق ، والتاء حرف غير مطبق مستفل فكرهوا من خلال ذوقهم للغتهم أن يأتوا بحرف بعد حرف يضاده وينافيه فقربوا التاء من هذه الأحرف بقلبها طاء ، لأنهما من مخرج واحد •

اذ لولا الاطباق فى الطاء لكانت دالا ولولا جهر الدال لكانت تاء فالجميع من مخرج واحد الا أن ثمت أحوال تفرق بينهن من اطباق وجهر وهمس •

ثم فى الظاء اطباق واستعلاء يوافق ما قبلها فيتجانس الصوت ، ويكون العمل من وجه واحد(١٢٢) •

---

(١٢٢) انظر شرح المفصل ٤٧/١٠ ، وشرح الشافية ٢٢٦/٣ •

غير أنه فى باب اطرد تجوز بالادغام لوجود الحرفين المتماثلين أعنى الطائين بعد قلب التاء طاء ، فكان لابد من الادغام للعلة السابقة .

ـ تقريب تاء الافتعال من فائه بقلبها دالا اذا كانت الفاء زايا ، أو دالا ، أو ذالا كقولهم : ازدان ، وادعى ، واذدكر فى ازتان ، وادتعى ، وادتكر(١٢٣) .

وعلة التقريب فى هذا أن الحروف الثلاثة مجهورة ، والتاء مهموسة ، فأبدلوا من التاء حرفا يؤاخيها فى المخرج ويتفق مع الزاى والذال فى الجهر فكان « الدال » غير أنه فى باب ادعى كان الادغام لاجتماع المثلين بعد قلب التاء دالا كما سبق فى اطرد(١٢٤) .

ـ تقريب السين بقلبها صادا اذا وقعت قبل حروف الاستعلاء الغين ، والخاء ، والقاف ، والطاء . مثل : صبغ فى سبغ وصخر فى سخر ، وصقر فى سقر ، والصراط فى السراط .

وقد اشترط العلماء لهذا التقريب شروطا وهى :

١ ـ أن تكون السين متقدمة على هذه الحروف لا متأخرة بعدها .

٢ ـ أن تكون هذه الحروف مقاربة لها لا متباعدة عنها .

٣ ـ أن تكون السين هى الأصل ، فان كانت الصاد هى الأصل لم يجز قلبها سينا ، لأن الأضعف يقلب الى الأقوى ، ولا يقلب الاقوى الى الاضعف .

---

(١٢٣) الخصائص ١٤٢/٢ .

(١٢٤) انظر الخصائص ١٤٢/٢ ، وشرح المفصل ٤٨/١٠ . وشرح الشافية ٢٢٧/٣ .

وعلل العلماء لتقريب السين من هذه الحروف بقلبها صادا فقالوا :

« وانما قلبوها صادا اذا وقعت بعدها هذه الحروف ، لأنها حروف مستعلية ، والسين حرف مستفل مثقل عليهم من خلال ذوقهم للمتهم الاستعلاء بعد التسفيل لما فيه من الكلفة .

فاذا تقدم حرف الاستعلاء لم يكره وقوع السين بعده لأنه كالانحدار من العلو وذلك خفيف لا كلفة فيه (١٢٥) .

وانما كان التقريب بالقلب صاد ، لأن الصاد من مخرج السين وتوافقها فى الهمس والصفير ، وتتفق مع الحروف السابقة فى الاستعلاء فيتجانس الصوت ولا يختلف(١٢٦) .

ـ تقريب السين من الدال بقلبها زايا . ففى يسدر . يقال : يزدر ، وفى يسدل ، يقال : يزدل .

والعلة أن السين حرف مهموس ، والدال مجهور ، فقلبت الى حرف يؤاخيها فى المخرج ويتفق مع الدال فى الجهر فكانت الزاى ، حتى يكون العمل من وجه واحد وتتحقق الخفة (١٢٧) .

تقريب الصاد من الدال بقلبها زايا ، أو مضارعها للزاى نحو قولهم فى مصدر : مزور ، وفى التصدير : التزوير ، وعليه قول العرب فى المثل لم يحرم من فزولة . وأصله : قصد له ثم اسكنت الصاد على حد قولهم فى ضرب : ضرب ، وقول الشاعر :

---

(١٢٥) انظر ذكر الفرق بين الأحرف الخمسة للبطليوسى ٣٣٨ ، ٣٣٩

(١٢٦) انظر شرح المفصل ١٠/٥١ ، ٥٢ ، وشرح الشافية ٣/٢٣٠ .

(١٢٧) المرجعين السابقين ١٠/٥٢ ، ٣/٢٣١ .

ونفخوا فى مدائنهم فطروا(١٢٨)

فصار تقديره : قصد له : علما سكنت الصاد ضعفت به وجاورت الصاد — وهى مهموسة — الدال — وهى مجهورة • قربت منها بأن أشمت شيئا من صوت الزاى المتحته مع الدال فى الجهر •

وهذا وجه فى تقريب الصاد الساكنة قبل الدال باشرابها شيئا من صوت الزاى • وهنا لا وجه آخر وهو أن تقلب الصاد زايا خالصة •

والعله : أن الصاد مطبقة مهموسة رخوة ، والدال غير مطبقة مجهورة شديدة ، فلما كان بين جرسيهما هذا التنافى نسبت الدال عنها بعض نبو فقربوا بعضها من بعض ، ولم يمكن الادغام ولم يجترؤا على ابدال الدال ، لأنها ليست زائدة كالتاء فى افتعل نحو اصطبر • فأبدلوا من الصاد زايا خالصة ، فتناسبت الأصوات لأن الزاى من مخرج الصاد ، وأختها فى الصفير وهى تناسب الدال فى الجهر فتلاءما وزال النبو •

وأما مضارعة الصاد للزاى ، واشرابها شيئا من صوتها فلتصير حرفا مخرجه بين مخرج الصاد ومخرج الزاى ، ولم يقلبوها زايا كالوجه الذى قبله محافظه على الاطباق لئلا يذهب صوت الصاد بالكلية فيذهب ما فيها من الاطباق الذى هو فضلة فيها فيكون احجاما •

ولابد أن تكون الصاد فى هذه المسئلة ساكنة فلو كانت متحركة لم يصح التقريب ، لأن الحركة تحجز بينها وبين الدال اذ محل الحركة من الحرف بعده(١٢٩) •

---

(١٢٨) البيت للقطامى وصدره : ألم يخز التفرق جند كسرى ..
انظره فى الخصائص ١٤٤/٢ واللسان ٤٤٩٥/٦ نفخ •

(١٢٩) انظر شرح المفصل ٥٢/١٠ وشرح الشافية ٢٣١/٣ والخصائص ١٤٤/٢ •

٢ ــ التقريب فى الحركات :

ــ فمن ذلك الأمالة . وانما تكون فى الكلام لتقريب الصوت من الصوت . مثل عالم ، وكتاب ، وسعى ، وقضى .

فقد قرب فاتحة العين فى عالم الى كسرة اللام ، بأن نحى بالفتحة نحو الكسرة ، فأميلت الالف نحو الياء ، وكذلك فى سعى وقضى(١٣٠)

ويقول ابن يعيش . والغرض من الامالة تقريب الأصوات بعضها من بعض لضرب من التشاكل ، وذلك اذا ولى الالف كسرة قبلهـا ، أو بعدها نحو عماد وعالم ، فيميلون الفتحة قبل الالف الى الكسرة فيميلون الالف نحو الياء . وكما أن الفتحة ليست فتحة محضة : فكذلك الألف التى بعدها ، لأن الألف تابعة للحركة ، فكأنها تصير حرفا ثالثا بين الألف والياء ... ، لأن الألف تطلب من الفم أعلاه والكسرة تطلب أسفله وأدناه فتنافرا ، ولما تنافر أجنحت الفتحة نحو الكسرة والألف نحو الياء ، فصار الصوت بين بين ، فاعتدل الأمر بينهما وزال الاستثقال الحاصل من التنافر »(١٣١) .

وواضح أن عدم الإمالة فى مثل هذه الأمثلة لا يضر بالنظام اللغوى حال الاستعمال والنطق .

ولكن العرب نطقوا بامالة الفتحة قبل الألف الى الكسرة مما يترتب عليه تنافر النطق بين الكسرة والألف ، وهنا تأتى ظاهرة التقريب السياقية بامالة الألف نحو الياء فترفع هذا التنافر الذى يأباه ذوق العرب فكأن الظاهرة تقريب فى الحركات لابد أن يتبعه تقريب فى الحروف والتقريب فى الحركات هو الأول والأصل .

---

(١٣٠) انظر الخصائص ٢/١٤١ .
(١٣١) شرح المفصل ٩/٥٤ ، ٥٥ .

ومن الممكن أن يدرج فى هذا اللون ما سمعه ابن جنى وحكاه عن اللغويين فى قوله : « ومن ذلك تقريب الصوت من الصوت مع حروف الحلق نحو شعير ورغيف •

وسمعت الشجرى غير مرة يقول : رئير الأسد ، يريد الزئير ، وحكى أبو زيد عنهم : الجنة لمن خاف وعيد الله »(١٣٢) •

والواضح أن فتحة الهاء قربت الى الكسرة لتناسب كسرة العين والياء التى بعدها فيؤدون العمل من وجه واحد ويخف النطق ، وهذا هو مقصودهم من تقريب الصوت من الصوت ، ولا يعنى أن هذا خاص بحروف الحلق ، فقد جاء فى غيرها •

قال ابن جنى : « ومن التقريب قولهم : الحمد لله ، والحمد لله »(١٣٣) •

٢ ــ تقريب الحركة من الحرف :

وذلك فى قولهم ، فعل يفعل مما عينه ، أو لامه حرف حلق نحو سأل يسأل ، وقرأ يقرأ ، وفرغ يفرغ ، وذهب يذهب ، وسبح يسبح ••• فمقتضى التحاذب بين عينى الماضى والمضارع أن تكون عين المضارع بالكسر ، فأبدلوها فتحة لتقرب من حرف الحلق الذى قبلها اذا كان عينا ، أو بعدها اذا كان لاما •

لأن حروف الحلق يخرج من موضعها الألف على رأى بعض القدماء ، والفتحة من الألف ، فكان بين الفتحة وحرف الحلق مناسبة للعمل من جهة واحدة فى النطق(١٣٤) •

---

(١٣٢) الخصائص ٢/١٤٣ وقارن بالكتاب ٤/١٠٧ وما بعدها •

(١٣٣) الخصائص ٢/١٤٤ •

(١٣٤)

٤ ــ تقريب الحركة من السكون :

وذلك باضعافهـ لتقترب من السكون فى نحـو حيىٍ ، وأحيى وأعيى ، فهذا وإن كان مدغما لكنه بوزنه محركا بدليل قبول وزن الشعر له قبوله للمتحرك فى مثل قوله :

فأن رمم أجمال وفارق جيرة(١٣٥) .

والمعنى أن الحركة يكون فيها شىء من الاخفاء فى النطق لتقرب من السكون لكنها تعد فى وزن الشعر متحركة(١٣٦) .

وقال سيبويه : « وسمعنا بعض العرب يقول : أعياء وأحييه فيبين ، وأحسن ذلك أن تخفيها وتكون بمنزلتها متحركة »(١٣٧) .

والخلاصة أن التقريب كظاهرة سياقية يهدف الى ازاله الاستثقال واللبس فى النطق مما يحقق رغبـة الذوق العـربى فى خدمة المتكلم والسامع ، كما يعمل على ايجاد التخفيف عن طريق المناسبة بين الحروف أو الحركات حتى يخف العبء عن جهاز النطق .

وقد يتقـدم ظاهرة التقريب الابدال كوسيلة الى تحقيقها ، وقد يتلوها الادغام ــ كما مر ــ مبالغة فى تحقيق التخفيف ورغبة فيه .

٥ ــ الاعـلال والابـدال :

ليس المراد من هذا أن العرب كانوا ينطقون شيئا ، ثم أبدلوا به شيئا آخر ، أو أعلوه ، وليس المراد أن هناك مستعملا قديما متروكا ،

---

(١٣٥) صدره : وصاح غراب البين أنت جزئين وهو من شعر كثير وانظر فى شرح المفصل ١١٣/٩ والشاهد النطق بتخفيف الهمزة للتأنية بين بين وفى الوزن كالمتحركة .

(١٣٦) انظر الخصائص ١٤٤/٢ .

(١٣٧) الكتاب ٣٩٧/٤ .

ومستعملا جديدا منطوقا ، وانما المراد ما يقرره تظـــام اللغة ويتطلبه سياق الاستعمال ، فان كان ما يقرره نظام اللغة يؤدى الى الاستثقال الذى يرفضه ذوق العرب ، فلابد من جنوح السياق الى ظاهرة سياقية تؤدى الى التخفيف مما يرضى عنه الذوق العربى للفصحى ويقبله .

وظاهرة الاعـلال والابدال توفـر مطلب السـياق من تخفيف واستحسان ، وازالة قبح واستثقال .

وقد ذكر علماء اللغة أن عدم الاعلال أو الابدال فى بعض الكلمات يؤدى الى الاستثقال واستكراه الكلمة فقالوا :

« امتنعوا من تصحيح ياء موسر ، وواو ميزان استكراها للكلفة ، وان كان النطق به ممكنا غير متعذر . ويقال : اضتقطت النوى ، فصححوا تاء افتعل ، وفاؤه ضـاد مما يمكن النطق به الا أنه رفض استثقالا لـه(١٣٨) .

ومعنى أن هذا مما يمكن النطق به : أى مما يقرره النظام اللغوى غـير أن فيه من الاستثقال والكلفة ما دعا الذوق العـربى الى رفضه وانكاره ، والاستعانة بظاهرة سياقية تؤدى الى قبوله .

والاعلال والابدال قد يكون بين حروف اللين ، وقد يكـون بين اللين والصحيح على النحو التالى :

ـ بين حروف اللين :

إذلك فى مثل صبية ، وصبيان قلبوا الواو ، لأنه من صـبوت لانكسار الصاد قبلها ، وضعف الباء أن تعتد حاجزا لسكونها ـ قلبوها

---

(١٣٨) انظر الخصائص ١/٢٦٢ .

ياء استحسانا وايثارا ، واستمروا فى ذلك حتى بعد زوال الكسرة وذلك قولهم : صبيان ، وصبية بضم الصاد فيهما .

وكذلك فى مثل قولهم : أبيض لبياض ، فقد قلبوا الواو ياء لكسرة ما قبلها ، لأن أصلها الواو ، لأن بياضه مما يلوح للناظر ، والعلة فى ذلك الميل والرغبة فى خفة الياء ، وقد أبقوا الياء أيضا على حالها حتى بعد زوال الكسرة فى قول بعضهم : لياح بفتح اللام مما يدل على ايثار الأخف على الأثقل .

وقد قال سيبويه : « لا نعلمهم أتموا فى الواوات ، لأن الواوات أثقل عليهم من الياءات ، ومنها يفرون ... »(١٣٩) .

ومن ذلك ما ينطقه أهل الحجاز فى صواغ فيقولون: صياغ(١٤٠). فقد كرهوا التقاء الواوين لاسيما فيما كثر استعماله ، فأبدلوا من الأولى ياء ، لأنها زائدة كما قالوا فى أما : أيما ، فصارت الكلمة صيواغ فالتقت الواو بالياء قبلها ساكنة ، فابدلوا من الواو ياء ، ثم أدغمت الياء فى الياء ، فصارت الكلمة صياغ ، وليس فى ذلك الا قصد الاستخفاف(١٤١) .

ـ بين اللين والصحيح :

ومن ذلك قول العرب تسربت من سرر ، وقصيت ، من قصص . وقول الشاعر :

---

(١٣٩) انظر الكتاب ٤/٣٤٨ ، والخصائص ١/٣٤٩ ، ٣٥٠ وشرح المفصل ١٠/٨٠ .

(١٤٠) اللسان ٤/٢٥٢٧ صوغ .

(١٤١) الخصائص ٢/٦٥ ، ٦٦ .

تقضى البازى أذا البازى كسر(١٤٢)

وهو من قضض ، وكل هذا آحاله ما عرض من استثقال تكريره الى لفظ تسرى ، وقصى ، وتقضى •

وقد قال ابن جنى : « ومن ذلك استثقالهم المثلين حتى قلبوا أحدهما فى نحو أمليت ، وأصلها أمللت »(١٤٣) •

هذا وقد عقد ابن السكيت فى ٢٤٤هـ فى كتابه «الابدال» ، وابن قتيبة ت٢٧٦هـ فى كتابه « أدب الكاتب » بابا لابدال أحد الحرفين المثلين اذا اجتمعا ياء مثل تظنيت من تظنن ، وتصديت من تصدد ، وتمطى من تمطط(١٤٤) •

واخيرا فقد بدا واضحا ما يضفيه الذوق العربى على اللغة الفصحى من استحسان ورغبة فى الاستخفاف وما يكرهه من استثقال وكلفة فى النطق •

وقد ظهر كذلك استعانته ببعض الظواهر السياقية فى تحقيق ما يهدف اليه من ازالة ما يتعارض والنطق وان اتفق مع مقررات النظام اللغوى • وهذا يعنى أن للغة الفصحى ذوقها المتميز الذى زودها بأسرار ، وخصائص انفردت بها عن غيرها من اللغات •

---

(١٤٢) البيت للعجاج وصدره : اذا الكرام ابتدروا البـاع بدر ، والمعنى : كسر جناحيه لشدة طيرانه • انظر اللسان ٥/٣٦٦١ قصص •

(١٤٣) الخصائص ٢/٢٣١ •

(١٤٤) انظر الابدال لابن السكيت ١٣٢ وما بعدها وأدب الكاتب لابن قتيبة ٣٧٦ •

مراجـــع البحـــث

١ ـ الابدال لابن السكيت ت ٢٤٤ تحقيق محمد محمد شرف ـ طبـع الهيئة العامة للكتاب ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م ٠

٢ ـ أبنية العربية فى ضوء علم التشكيل الصوتى د٠ عبدالغفار حامد هلال ط (١) دار الطباعة المحمدية ١٩٧٩م ٠

٣ ـ أدب الكاتب لابن قتيبـة ت٢٧٦هـ تحقيـق محمـد محيى الدين عبدالحميد ط (٤) السعادة بمصر ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٣م ٠

٤ ـ أساس البلاغة للزمخشرى ت ٥٣٨هـ ٠ ط (٤) دار التنوير العربى بيروت لبنان ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م ٠

٥ ـ أسس علم اللغة ـ ماريو باى ـ ترجمة د/أحمد مختار عمر ٠ ط (٢) نشر عالم الكتب ٠ مطابع سجل العرب ـ القاهرة ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م

٦ ـ أصوات اللغة العربية د٠ عبدالغفار حامد هلال ٠ ط (٢) الجبلاوى بمصر ١٩٨٨م ٠

٧ ـ أصوات اللغة العربية د٠ عيد محمد الطيب مطبعة الأمانة بمصر ١٩٨٣م ٠

٨ ـ أصول تراثية فى علم اللغة د٠ كريم زكى حسام الدين ٠ ط (٢) الأنجلو المصرية ١٩٨٥م ٠

٩ ـ الأفعال لابـن القطاع ت ٥١٥هـ ٠ ط (١) عـالم الكتب ـ بيروت ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م ٠

١٠ ـ البارع فى اللغة للقالى ت ٣٥٦هـ ٠ تحقيق هاشم الطعان ـ ط (١) بيروت ١٩٧٥م ٠

١١ ـ البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى ت ٧٤٥هـ ـ ط (٢) دار الفكر ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م ٠

١٢ ـ البيان والتبين للجاحظ • ت ٢٥٥هـ تحقيق عبدالسلام هارون ط (٤) الخانجى بمصر [illegible]

١٣ ـ الجمهرة لابن دريد ت ٣٢١هـ • طبع دار صادر ـ بيروت من دون تاريخ •

١٤ ـ الخصائص لابن جنى ت ٣٩٢هـ تحقيق محمد على النجار ـ ط (٢) دار الكتب المصرية من دون تاريخ •

١٥ ـ خلق الانسان لثابت بن أبى ثابت من علماء القرن الثالث الهجرى تحقيق عبدالستار فراج مطبعة الكويت ١٩٦٥م •

١٦ ـ الدلالة الصوتية ـ دراسة لغوية لدلالة الصوت ودوره فى التواصل ـ د• كريم زكى حسام الدين • ط (١) الأنجلو بمصر ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م •

١٧ ـ ذكر الفرق بين الأحرف الخمسة للبطليوسى ت ٥٢١هـ تحقيق د/حمزة عبدالله النشرتى ط دار الطباعة الحديثة بمصر ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م •

١٨ ـ سر صناعة الاعراب لابن جنى ت ٣٩٢هـ تحقيق مصطفى السقا وآخرين ط (١) مصطفى البابى الحلبى بمصر ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٤م

١٩ ـ سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ت ٤٦٦هـ • شرح عبدالمتعال الصعيدى مطبعة محمد على صبيح ـ القاهرة ـ ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م

٢٠ ـ شرح التصريح على التوضيح للشيخ خالد الأزهرى من علماء القرن العاشر الهجرى ط عيسى الحلبى القاهرة من دون تاريخ •

٢١ ـ شرح شافية ابن الحاجب لرضى الدين الاستراباذى ت ٦٨٦هـ تحقيق محمد نور الحسن وآخرين طبع دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م •

٢٢ ـ شرح المفصل لابن يعيش ت ٦٤٣هـ مكتبة المتنبى القاهرة من دون •• طبع عالم الكتب ـ بيروت •

٢٣ ـ صحيح الإمام البخارى ت ٢٥٦هـ مطابع الشعب القاهره ٠ بتاريخ ١٣٧٨هـ ٠

٢٤ ـ العربية ـ دراسات فى اللغة واللهجات والأساليب ـ يوهان فك ترجمة دكتور / رمضان عبدالتواب ط الخانجى بمصر ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م ٠

٢٥ ـ الفصيح لثعلب ت ٢٩١هـ وشرحه المسمى التلويح فى شرح الفصيح لأبى سهل الهروى ت ٤٣٣هـ تعليق د٠ عبدالمنعم خفاجى طبعة ١٩٤٩م

٢٦ ـ القاموس المحيط للفيروزابادى ت ٨١٧هـ طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م ٠

٢٧ ـ الكتاب لسيبويه ت ١٨٠هـ تحقيق عبدالسلام محمد هارون ط (٢) ١٩٨٢ القاهرة ٠

٢٨ ـ كتاب الفراسة للفخر الرازى ت ٦٠٦هـ تحقيق يوسف مراد طبع الهيئة المصرية ١٩٨٢م ٠

٢٩ ـ الكشاف عن حقائق التنزيل للزمخشرى ت ٥٣٨هـ ٠ طبع الحلبى بمصر ١٩٧٣م ٠

٣٠ ـ كفاية المستفيد فى فن التجويد لمحى الدين الخطيب ط (٥) العراق ١٩٨٢م ٠

٣١ ـ لسان العرب لابن منظور المصرى ت ٧١١هـ طبع دار المعارف بمصر ٠

٣٢ ـ لطائف الاشارات لفنون القراءات للقسطلانى ت ٩٢٣هـ تحقيق عامر السيد عثمان وآخر طبع المجلس الأعلى للشئون الاسلامية القاهرة ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م ٠

٣٣ ـ لغة تميم ـ دراسة تاريخية وصفية ـ د/ضاحى عبدالباقى طبع الهيئة العامة لشئون المطابع ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م ٠

٣٤ ـ اللغة العربية معناها ومبناها لتمام حسان ـ طبع القاهرة ١٩٧٩م الهيئة المصرية العامة للكتاب ٠

٣٥ ـ اللغة لفندريس ٠ ترجمة عبدالحميد الدواخلي وآخر طبع القاهرة ١٩٥٠م ٠

٣٦ ـ المثلث للبطليوسي ت ٥٢١هـ تحقيق صلاح مهدي علي طبع دار الرشيد ـ بغداد ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م ٠

٣٧ ـ المحتسب لابن جني ٣٩٢هـ تحقيق علي النجدي ناصف وآخر طبع المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٩م ٠

٣٨ ـ المخصص لابن سيده ت ٤٥٨هـ نفرة بالأوفست ـ بيروت ـ عن طبعة بولاق ١٣٢١هـ ٠

٣٩ ـ مدارج السالكين لابن قيم الجوزية ت ٧٥١هـ ٠ طبع دار الحديث القاهرة ١٩٨٤م ٠

٤٠ ـ مذاهب النقد وقضاياه د /عبدالرحمن عثمان طبع (١) الاعلانات الشرقية القاهرة ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م ٠

٤١ ـ المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي ت ٩١١هـ تحقيق محمد جاد المولى وآخرين طبع عيسى الحلبي بمصر من دون تاريخ ٠

٤٢ ـ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير : الفيومي ت ٧٧٠هـ طبع المكتبة العلمية بيروت ـ لبنان ٠

٤٣ ـ المعجم الوسيط ـ مجمع اللغة العربية بالقاهرة ٠ أخرجه ابراهيم مصطفى وآخرون القاهرة ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م ٠

٤٤ ـ مقدمة ابن خلدون ت ٨٠٨هـ طبع بيروت ١٨٨٦م ٠

٤٥ ـ الملامح الأدائية عند الجاحظ في البيان والتبيين ٠ دكتور / عبدالله ربيع محمود ط (١) حسان ـ القاهرة ـ ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م

٤٦ ـ مناهج البحث في اللغة ـ د/تمام حسان طبع دار الثقافة ـ المغرب ـ الدار البيضاء ـ ١٤٠٠هـ ـ ١٩٧٩م ٠

٤٧ ـ النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى ت ٨٣٣هـ • تصحيح محمد الضباع طبع دار الفكر القاهرة •

٤٨ ـ النقد المنهجى عند العرب ومعه منهج البحث فى اللغة د / مندور طبع دار نهضة مصر ـ القاهرة •

٤٩ ـ نهاية الأرب للنويرى ت ٧٣٣هـ تحقيق محمد حجى ط دار الثقافة ـ الدار البيضاء ـ المغرب ـ ١٩٨١م •

٥٠ ـ النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ت ٦٠٦هـ تحقيق محمود الطناحى ط بيروت ١٩٦٠م •

اعداد دكتور / سيد احمد على الصاوى

المدرس بقسم اصول اللغة بكلية اللغة العربية بأسيوط